


تصویر

طائر هيسه تتويو

ترجمة: طاهر رياض



0112388



Bibliotheca Alexandrina

تجوال

رقم التصنيف : ٨١١
المؤلف ومن هو في حكمه : هرمان هيسه ، ترجمة طاهر رياض
عنوان المصنف : نهرال ، ط ٢
الموضوع الرئيسي : ١- الأدب
٢- الشعر الأثري المترجم
رقم الإيداع : (١٩٩٧/١١/١٧٤٩)
بيانات النشر : عمان : دار أرملة .
* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

(ردمك) ISBN 9957-09-014-3

هذه هي الترجمة الكاملة للكتاب
Wandering
by Herman Hesse

☐ نهرال : هرمان هيسه
☐ الطبعة الأولى : منارات ، ١٩٩٠
☐ الإصدار الثاني :  ١٩٩٩
جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق وعقد
أرملة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص.ب : ٩٥٠٢٥٢
عمان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صفر ، عمارة الدوحة ، ط ٤

All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in all retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر .

لوحه الخلال : ديفيد فرجي نسانغ
تصميم الخلال : أرملة (الياس فركوج)
فرز وسحب الأعلام : الشروق
الطباعة : شركة الشرق الأوسط للطباعة
تاريخ الصدور : كانون الثاني ١٩٩٩
الرسوم الداخلية للمؤلف



إبداعات عالمية



نصوص

هرمونات هيبسه

تبول

ترجمة

طاهر رياض



ولد هيرمان هيسه عام ١٨٧٧ في كالف، ألمانيا.
ابتدأ حياته العملية كبائع كتب، في الوقت الذي
شرع يكتب وينشر فيه قصائده الأولى، حين كان عمره
٢١ عاماً. حقق أول نجاح كبير له عندما نشر رواية «بيتر
كامنسند» التي عالج فيها مشاكل الشباب والتعليم
(١٩٠٤). ثم تنابعت رواياته: «الطفل المعجزة»
(١٩٠٥)، «جيتسرود» (١٩١٠)، «كنولب» (١٩١٥)،
«دميان» (١٩١٩).

بعد ذلك، وكاستجواب على التسلط العسكري
الألماني في الحرب العالمية الأولى، قرر الاستقرار بشكل
دائم في سويسرا، حيث كتب «تحوال» عام ١٩٢٠. تجلّت
انسانية هيسه العميقة وبحثه الفلسفي في أعماله كلها،
الروائية والشعرية، وعلى الأخص في «سدهارتا» (١٩٢٢)
«ذئب البوادي» (١٩٢٧)، «نرسييس وغولد مالد» (١٩٣٠)
والتي بوّأت مكانة فريدة كأحد قادة الفكر في عصره.
وفي عام ١٩٤٣ انجز رائعته «لعبة الكريكات
الزجاجية» التي مكنته من الفوز بجائزة نوبل للآداب عام
١٩٤٦.

أمضى هيسه بقية حياته في شبه عزلة في مدينة
مونتانيولا السويسرية حتى وافته المنية عام ١٩٦٢، عن
عمر يناهز الخامسة والثمانين.

بيت المزرعة

هذا هو المنزل الذي سأقول عنده وداعاً. لن يتسنى لي، لأجل
طويل، رؤية منزل مثله. فأنا، كما ترى، أتقدم مجتازاً ممراً من ممرات
جبال الألب، مصوباً نحو الشمال، الذي تنتهي عنده العمارة
الألمانية، والريف الألماني، واللغة الألمانية.

كم هو ممتع أن يُبلَّغَ حدُّ كهذا. يغدو الرجل الجوّال رجلاً بدائياً
في أكثر من طريقة، وبالطريقة ذاتها التي تجعل من البدوي أكثر
بدائية من الفلاح.

ولكن الرغبة في تجاوز كل شيء إلى جانبه الآخر قد توطدت،
الامر الذي يجعل مني، وكل من هم على شاكلي، علامات طريق
إلى المستقبل. لو كان هناك آخرون كثيرون يشمئزون من الحدود
بين البلدان كما أشمئز أنا، لما بقي من أثر للحروب والمعوقات منذ
زمن. فما من شيء على الأرض أنحسّ وأدعى إلى الغثيان من

الحدود. إنها أشبه بالمدافع، أشبه بالجنرالات: ما دام السلام والمحبة قائمين وعامين فما ثمة من يعيرهم أي انتباه - ولكن ما إن تنشب الحروب ويتسيد الخبل، حتى يغدو وجودهم مُلحاً ومقدساً. ولشدّ ما كانوا يمثلون لنسا الألم والسجن، نحن الجسوالين، أيام الحرب مشتعلة. فليأخذهم الشيطان!

ها إني أرسم تخطيطاً للمنزل في دفترتي، فيما عينايتي تفارقان بأسي السقف الألماني، والهيكل الألماني للمنزل، والجملونات، كل ما أحببت، وكل ما هو حيمي لدي. وأحسّ، مجدداً، بالحب العميق لكل ما في وطني، لأنني مضطر إلى هجره. غداً سوف أحشق سقوفاً أخرى، وأكوأخاً أخرى. ولن أخلف قلبي ورائتي، كما يقولون في رسائل الغرام. لا، بل سأحمله معي إلى الجبال، فأنا بحاجة إليه دائماً. أنا بدوي، ولست فلاحاً.

أنا عابد لكل ما هو قليل الاخلاص، للمتغير، للفتازي. ليس من همومي أن أقف حبي على مكان واحد صغير على هذه الأرض. أو من أن ما نحبّه ليس إلا رمزاً. فإذا استحال الحب ولوعاً بشيء واحد، بإخلاص واحد، بفضيلة واحدة، عندئذ يتتابني الارتياب.

طوبى للفلاح! طوبى للرجل الذي يملك هذا المكان، الرجل المخلص الفاضل الذي صنعه! أستطيع أن أحبه، أن أبجله، أن أحسده، فلقد ضيعت نصف حياتي محاولاً أن أعيش حياته. كنت أريد أن أكون ما لم أكنه. كنت أريد أن أصبح شاعراً ورجلاً متوسط

الحسب في الوقت ذاته . كنت أريد أن أكون فناناً ورجلاً غارقاً في
الأوهام ، ولكنني أيضاً كنت أريد أن أكون رجلاً طيباً ، رجل بيت
طيباً . واستمر هذا فترة طويلة من الزمن ، إلى أن أدركت أن ليس
في وسع المرء أن يكون الاثنين ويحظى بالاثنين ، فأنا بدوي ولست
فلاحاً ، أنا رجل يبحث لا رجل يدخر . ولزمن مد يد كنت أؤنب
نفسي أمام الآلهة وأمام الشرائع ، تلك التي لم تكن بالنسبة لي غير
أشباح . ذلكم هو خطأي وكربي واشتراكي الآثم في صنع ألم العالم .

لقد أضفت إلى العالم ذنباً وكروباً ، بما مارسته على نفسي من
عنف ، وبعدم جرأتي على الماضي قدماً نحو خلاصي . إن طريق
الخلاص لا تتجه إلى اليمين أو اليسار ؛ إنها تتجه إلى قلبك أنت ،
هناك فحسب تجد الله ، وهناك فحسب تجد السلام .

نسائم الجبال الندية تندفع نحوي ، فيما تتأمل خلفي جُزُرُ السماء
الزرقاء ، من عل ، البلدانُ الأخرى . تحت تلك السماوات ساحس
بالسعادة أحياناً ، وساحس تحتها بالحنين أحياناً أخرى . إن الرجل
الكامل الذي هو أنا ، الجوّال الخالص ، لا ينبغي له أن يفكر
بالحنين . ولكنني أعرف أنني لست كاملاً ، وأني لا أناضل لكي أغدو
كذلك . بي رغبة لتذوق الحنين ، كما أتلوق المتعة .

هذه النسائم الهابة على ما أتسلقه ، تعبق بأرج الماوراء والنائي ،
بالفواصل المائية واللغات الأجنبية ، بالجبال ومطارح الشمال . إنها
مترعة بالوعود .

وداعاً يا بيت المزرعة، ويا موطني. أهجرك كما يهجر الشاب أمه :
إنه يعرف ان الأوان قد آن لهجراتها، ويعرف كذلك ان ليس بإمكانه
هجراتها تماماً، حتى ولو كان يريد ذلك .



مقبرة ريفية

وسط الصليبان المعرّشة باللبلاب،
تنتشر أشعة الشمس والعبير وطنين النحل.

أيها الهانثون، المضجعون تحت ستوركهم،
والمستكنّون إلى قلب الأرض الرؤوم.

أيها الهانثون، يا من عدتم وادعين ومجهولين
لتستريحوا في حضن الأم.

أصغوا ثمة، فمن خلايا النحل ومن الأزهار
يغني لي الشوق اللاهف إلى الحياة.

ومن جذور الأحلام المتشابكة،
يهبّ الوجود الذي طال موته إلى النور،

وخرائب الحياة، المدفونة بغموض،
تتحول وتنهض مطالبة بالحياة،

والأم - الأرض الملكية
تختلج بمخاض الولادة.

كنز السلام العذب في جدته الأجوف
يهتز بلطف كما الحلم في الليل.

ليس حلم الموت سوى الدخان الأسخم
حيث تشتعل تحته نيران الحياة.



ممر جبلي

على هذا الطريق الضيق والجريء لا تكف الرياح عن الهبوب .
لقد تراجعت الأشجار والأجام دونه ، وتركت للحجارة والطحالب
وحدها ان تنمو . ما من شيء هنا يسترعي انتباه أحد ، وما من شيء
يمكن ان يكون ملكاً لأحد ، في هذه الأعالي التي يتعذر فيها على
المزارع ان يجد القش يلة الحطب . بيد أن المسدى المغربي ، والتوق
المستثار قد وفرا لنا ، عبر الصخور والمستنقعات والثلوج المتراكمة ،
هذا الطريق الضيق الرائع ، الممتد صعداً نحو أودية أخرى ، ومنازل
أخرى ، وأناس آخرين

عند أعلى نقطة من هذا الممر الجبلي أتوقف . فالطريق يهوي
منحدراً من كلا الجانبين ، وإلى الأسفل من كلا الجانبين يتدفق
الماء ، وكل المتجاورات هنا في الأعلى تجد طريقها نزلاً باتجاه عالمين
مفترقين . بركة المياه الصغيرة التي تلامس جذائي تسيل جنوب

الشمال، حيث سينتهي المطاف بمائها في بحار باردة بعيدة. بينما تسبح قطرات كتلة الثلج المجاورة لها صوب الجنوب، لتسقط على الشاطئ الليغوري أو الأمريكاني، وتمتزج بمياه البحر الذي حدوده أفريقيا. ولكن مياه العالم جمعاء لا تلبث ان يلتقي بعضها بعضاً. فتجتمع بحار القطب الشمالي بنهر النيل في سوب محلق من الغيوم البلية. إن هذه الصورة القديمة الحسنة لتضفي القداسة على ساعتنا هذه. فكل الطريق لا محالة رادتنا، نحن الجوالين، أيضاً إلى موطننا.

ومع ذلك، فما يزال لنظرتي المتأملة ان تختار، وما يزال الشمال والجنوب ملكاً لغني. فبأقل من خمسين خطوة وحسب أبلغ الجنوب. ما أشد غموض عبيره المنبعث من أوديته الزرقاء! كم من القلوب يخفق فيه! إن ألفة بحيراته وحدائقه، وعبق نبيله ولوزه، لتصاعد حاملة إلي رسالة شوق قدسية، ورغبة بالحج إلى روما.

بعيد أن ولي الشباب، ها تصخب ذاكرتي برنين كرتسين الأجراس، مستعيدة من أودية موزلة في القصباء: متعة رحلتي الأولى إلى الجنوب، الهبوب النشوان للنسائم السخية، الجنائن المحيطة بالبحيرات الزرقاء، والأصفاء مساء لصوت موطني البعيد، عبر الأضواء المتلاشية للجبال الثلجية. هناك كانت صلاتي الأولى في حضرة الأماكن المقدسة للعالم القديم! وأيضاً، وكما في حلم، إطلاتي الأولى على البحر المزبد فيما وراء الضخور البنية!

انقضت تلك البهجة الآن، وانطفأ ذلك التوق، توق أن أظهر
لمن أحبه سعادتي الغامرة بتلك الأمداء الخلابه . لقد هجر الربيع
قلبي . وحل الصيف محله . الترحيب الذي تستقبلني به الأماكن
الغريبة غير ما اعتدته من ترحيب، ولا يخلف في صدري غير صدى
خافت . وما أراني ألقى بقبعتي في الهواء . وما أراني أغني .

ولكني أبسم، وليس بغمي وحسب . بل بروحي، بعيني، بجماع
جلدي أبسم، وأمنع هذه الأرياف، وهذه النسائم العطرة المندفعة
نحوي، حواس جديدة ما كنت أمتلكها قبلاً، حواس أكثر رقة،
وأشد صمتاً، وأحد مضاء، وأوسع خبرة، وأعمق امتناناً .

كل شيء هولي الآن أكثر من أي وقت مضى، ويحسدني بغنى
أكبر وبمئات من اللغات . ولم يعد حنيني يرسم بألوانه الحلمية
المسافات المحتجة، فعيناي لا تطمحان بَعْدُ إلا إلى ما هو موجود،
ذلك أنهما قد تعلمتا كيف تبصران . ولقد غدا العالم أجمل من أي
عهد سابق .

لقد غدا العالم أجمل . ورغم أني وحيد فإنني لا أشكو من هذه
الوحدة . لا أريد للحياة أن تكون غير ما هي عليه . وإنني لعلی
استعداد لأن أتركني أنخبز تحت الشمس، حتى أقضي . بي لطف
عالم لأن أنضج . وعلى أهبة أنا للموت، وللولادة من جديد . لقد
غدا العالم أجمل .

السير ليلاً

أتمشى في وقت متأخر وسط الغبار،
ظلال الجدران تتهاوى على الأرض،
ومن فرجات الكروم يترامى لي ضوء القمر
منسكباً على الجداول والطريق.

الأغنيات التي كنت غنيتها مرة
تعتادني بنعومة من جديد،
وتعترض طريقي طيوف رحلاتي
التي لا تجصى.

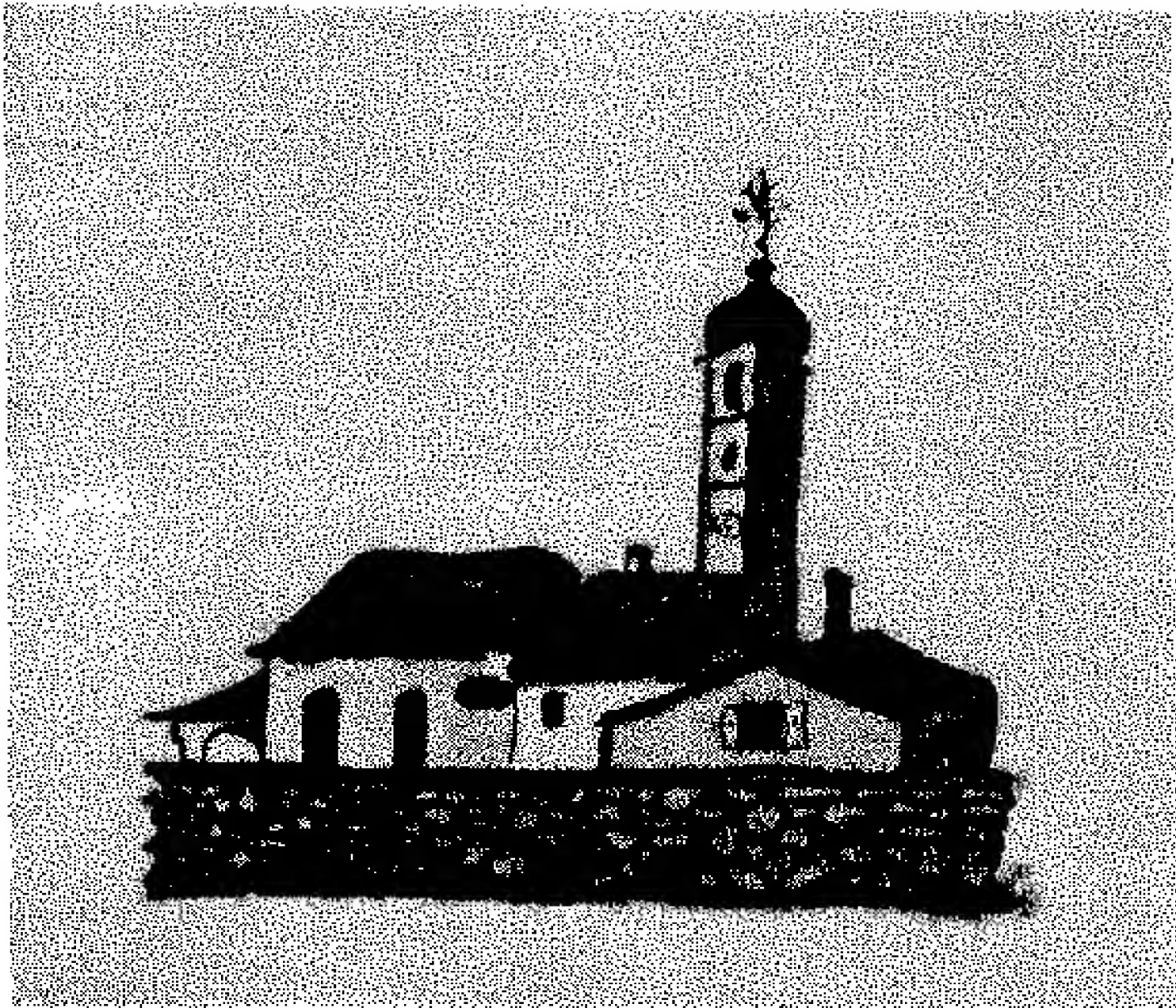
تتصادى في خطواتي
رياح السنين وثلجها وحرها،
الليالي الصيفية والبروق الزرقاء،

العواصف وتعبُ الترحالُ .

مسفوعاً ومترعاً بفيض هذا العالم
أحسني منجذباً

مرة أخرى

حتى يغيب دربي في الظلام .



بلدة صغيرة

إنها أولى المدن الصغيرة على الجانب الجنوبي للجبال . هنا تبدأ حياة الجوال الحقيقية ، الحياة التي أحب ، التجوال دون أية وجهة محددة ، يسر وبسهولة تحت أشعة الشمس ، حياة متشرد كامل الحرية . إنني لشديد النزوع لأن أمضي الحياة بحقيقية على الظهر ، تاركاً بنطالي يتهاوى كما يشاء .

بينما كنت أحتمي كأساً من النبيذ في الحديقة ، تذكرت فجأة أمراً كان قد قاله لي فيروشيوبوسوني : «أنت تبدو ريفياً» ، هذا ما قاله لي ذلك الرجل العزيز بشيء من السخرية في آخر مرة رأيته فيها . في زيوريخ ، منذ زمن ليس بالبعيد . كان أندريه قد قدم كولشيرتو لمانر ، وقد جلسنا معاً في مطعمنا المعتاد ، وكنت سعيداً لمراى وجه بوسوني الشبحي الشاحب الوضاء ، وليقظة ذلك العدو المادي الأكثر إبهاراً ، والذي ما نزال نحمله على نفوسنا . لماذا تعود إلي هذه

الذكرى؟

أنا أدري ! ليس بوسوني هو الذي أذكر، أوزيوريخ، أو ماهلر،
فما هذه كلها سوى خدع مألوفة تحتال بها الذاكرة حينما تصل إلى ما
يسبب لها الضيق، عندئذ تندفع الصور المصونة بنعومة بالغة إلى
مقدمة العقل . أنا الآن أدري ! ففي ذلك المطعم كان يجلس معنا
فتاة شقراء، تتللق، ويتورد خداهاء، ولم أتوجه إليها بكلمة واحدة .
أيها الملك ! كل ما كان علي أن أفعله هو أن أنظر إليك، وكان ذلك
مؤمناً، وكان كل متعتي، آه كم أحبتك طوال تلك الساعة ! ومرة
أخرى كنت في الثامنة عشرة .

وفجأة بدا كل شيء واضحاً أيتها الشقراء الرائعة الجمال الهائلة !
حتى أنني لا أذكر اسمك . لساعة كاملة كنت واقفاً في حبك، وفي
هذا اليوم، في الشارع المشمس لهذه المدينة الجبلية، أحبك مرة
أخرى لساعة كاملة، لا يهم من يكون ذلك الذي أحبك، فإنه لن
يبلغ مبلغ يجي لك، ما من رجل قط سلمك حق السيطرة عليه،
سيطرة تامة، كما فعلت أنا . ولكنني رجل محكوم بعدم الوفاء . إنني
أنتمي إلى تلك الأصوات الريحية، التي لا تحب النساء، التي تحب
الحب فجسب .

على هذه الشاكلة خلق كل واحد منا نحن الجوالين . إن أحسن
ما في تحولنا وتشردنا هو الحب والشبق . إن نصف رومانسية التجول

على الأقل ، هو نوع من التوقان للمغامرة ليس إلا . ولكن النصف الآخر هو توقان من نوع آخر - إنه الاندفاع اللاواعي نحو تبديل وتبديد المشتهى . نحن الجسوالين شديداً المكر - فنحن ننمي تلك المشاعر التي يستحيل تحقيقها ، ونبعثر الحب ، المقترض أن يتوجه للمرأة ، باستخفاف بين المدن الصغيرة والجبال ، بين البحيرات والأودية بين الأطفال على قارعة الطريق ، والشحاذين على الجسر ، والأبقار في مراعيها ، بين العصافير والفراشات . إننا نفصل بين الحب وموضوعه ، إذ الحب وحده يكفيننا ، وبالطريقة نفسها ، فنحن الجسوالين لا نتقصى غاية أبعد من السعادة التي يمنحنا إياها التجول ، مجرد التجول .

أيتها المرأة الشابة ، يا ذات الوجه النضير ، لا أرغب بمعرفة اسمك وما في نيتي إخصاب حبك والتعلق به ، ولكنها صحوة ، إنها بداية . لقد منحت هذا الحب للورود النابضة على طول الطريق ، لتألق شعاع الشمس في كأس خري ، للبصل الأحمر عند برج الكنيسة . أنت التي جعلت بإمكانني أن أحب العالم .

إيه ، يا للشريرة العقيمة ، حلمت ليلة أمس ، وأنا في كوخى الجبلي ، بالفتاة الشقراء . لقد كنت مهووساً بحبها ، وعلى أهبة للتخلي عن كل ما تبقى لي من الحياة بها في ذلك متع التجول ، فقط من أجل أن تكون بجانبى . لقد قطعت سحابة النهار متفكراً بها . من أجلها شربت نبيذني وتناولت خبزي . من أجلها رسمت في

دفترى الصغير تخطيطات للمدينة الصغيرة وبرج الكنيسة . من
أجلها شكرت الله - أنها لا تزال على قيد الحياة، وما تزال الفرصة
متاحة لي لرؤيتها. من أجلها، سوف أكتب أغنية، ثم أتمنى بهذا
النبيذ الأحمر.

واني لعلّى يقين: ان أول سلام قلبيّ أحظى به في هذا الجنوب
الرائق ليعود إلى حنيني لتلك المرأة الشفراء الوضوءة في الجانب الآخر
من الجبال. ما كان أجمل ثغرها العذب! وكم هي جميلة، سخيفة،
ساحرة - هذه الحياة البائسة.

التائه

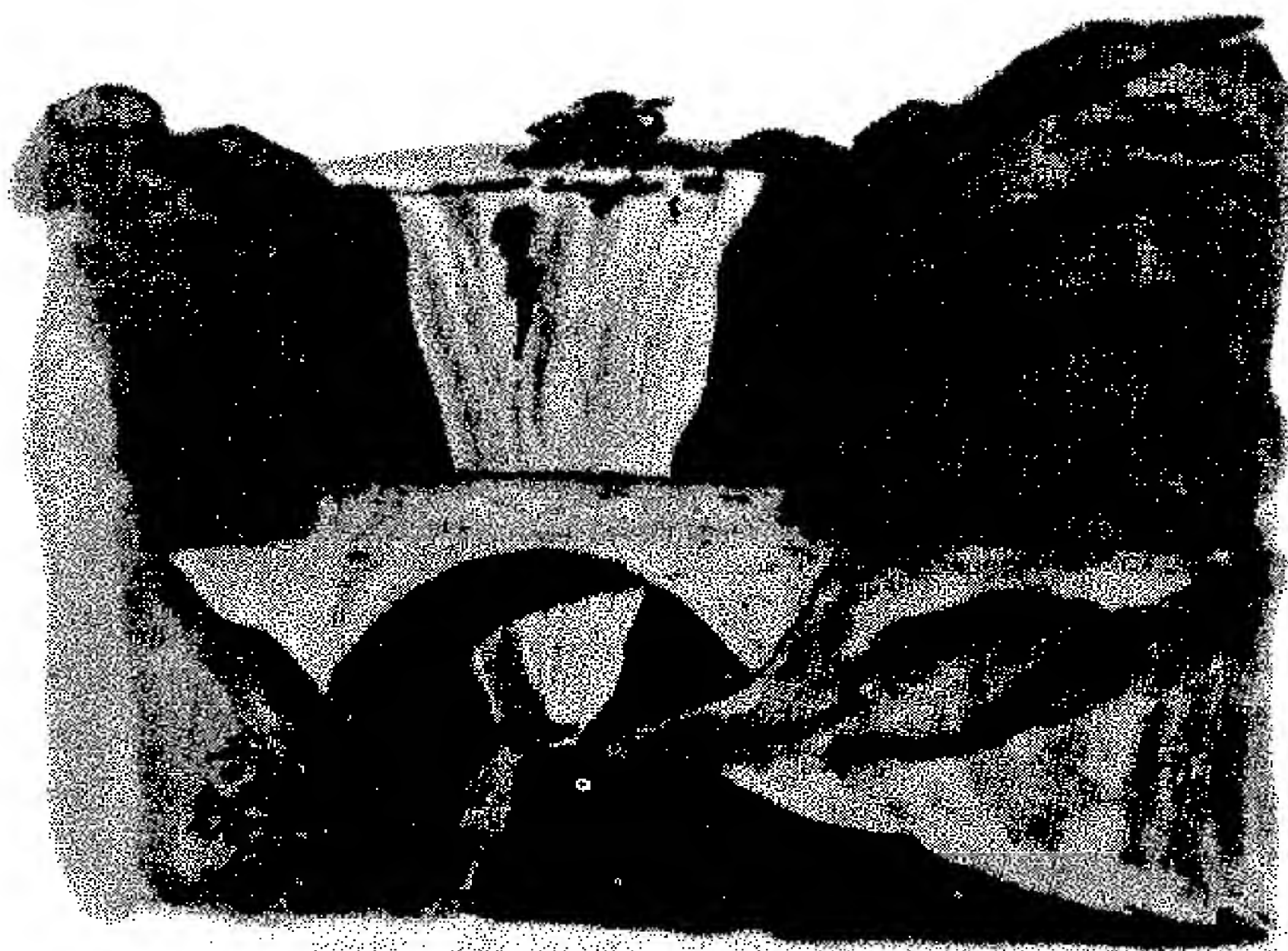
كالسائر في نومه ، أتلمس طريقي خلال الادغال والمضائق ،
محاطاً بهالة سحرية تتوهج بشكل خيالي ،
غير عابىء إن كنت معظماً أو لعيناً ،
ملياً بإخلاص ندائي الداخلي .

كم من مرة أرقني الواقع الذي يعيشه الآخرون
وكم دعائي إليه !
هناك وقفت متحرراً من الوهم وخائفاً
ولم ألبث أن انسللت مبتعداً من جديد .

آه يا بيتي الدافئ الذي سرقوني منه وأبعدوني ،
آه ، يا حلم الحب الذي ألقوه في .
إني لأفر عائداً إليك عبر آلاف المضائق والمسارب

كما يعود الماء إلى البحر.

تقودني الينابيع سرّاً بالخائفا،
وتنفس طيور الأحلام ريشها الفاتن؛
وتخرج طفولتي بأجراسها كما لو للمرة الأولى،
على شواطئ الضوء الذهبية وأغنية النحل الحلوة،
هناك أجدني من جديد أنشج قرب الأم.



1. *Phragmites australis* (Cav.) Trin. ex Steud.

الجسر

تمر دربي هذه بالجسر المعلق فوق الجدول الجبلي ، بمحاذاة الشلال . لقد عبرت مرة هذا الجدول - مرات عديدة في الحقيقة ، لكن إحسداها كانت شديدة التميز . لم تكن الحرب قد وضعت أوزارها بعد ، وكانت إجازتي قد انقضت لتوها ، وعليّ أن أتابع المسير من جديد ، أن أهرع قاطعاً طرقسات البلدة والسكك الحديدية ، عائداً الى واجباتي في الوقت المحدد . الحرب والمسؤوليات ، أذونات المغادرة والعودة ، تلك الشهادات الحمراء والشهادات الخضراء ، أصحاب السعادة ، الوزراء ، الجنرالات ، المكاتب البيروقراطية - كم كان عالماً وهمياً وغير معقول ، ورغم ذلك كان يستمر بالحياة ، وكان لديه من القوة ما يكفي لتسميم الأرض ، كان يملك أبواقاً بإمكانها استدعائي للمثول على الفور أنا الصغير ، الجوال ، الرسام بالألوان المائية ، عاصفةً بي خارج مأواي . المروج الخضراء هاجعة هناك ، وكذلك الكروم ، وتحته الجسر - كان ذلك

مساء ... نشج الجدول في الظلام ، وارتعشت القصبات الرطبة ، فيها
انبسطت سماء المساء الأخذة بالتقلص ، وراحت الورود تنمو باردة ؛
وعما قليل يبدأ وقت اليراعات . ما من حجر هنا لم أعشقه . ما من
قطرة من مياه الشلال لم أعضها امتثاني ، أو لم تكن قد تقطرت هابطة
من حجرات الله السرية . لكن هذا كله ما كان أمراً ذا بال ، فالحب
الذي أكنه للأجسام المنددة المتدلّية كان ضرباً من العاطفية ، أما
الواقع فكان شيئاً آخر ، إنه الحرب ، وقد دوى نفيها من خلال أفواه
الجنرالات ، وأفسواء الرقباء العسكريين ، ويتوجب عليّ ان أهرع ،
وعلى الآلاف المنتشرين في كل أودية العالم ان يهرعوا معي ، فلقد
بزغت شمس الزمن العظيم . وعلينا نحن البهائم المساكين ان نمثل
راكضين بأسرع ما نستطيع ، قبل ان يسبقنا الزمن العظيم . وطوال
رحلة عودتي ، لم يكف الجدول المنساب تحت الجسر عن الغناء في
داخلي ، مرجعاً اصدااء الارهاق الخفيف الذي انتاب السماء المسائية ،
وكان الجنون والبؤس يلفان كل شيء حوالي .

ها نحن نسير ثانية ، كل الى جانب جدوله الخاص ، وعلى طول
شارعه المؤلف ، ننظر الى العالم القديم ذاته ، الى آجامه ومزوجه
المنحدرة ، بعيون مسكونة بالصمت والقلق . نفكر بأصدقائنا الذين
ووروا التراب ، وكل ما نعرفه هو ان ذلك كان لابد ان يحدث ، وان
علينا ان نتقبله ، محتملين أحزاننا الذاتية .

ولكن الماء الرائع ، بلونيه الأبيض والأزرق ، يتابع تدفقه من

الجبال البنية ، مغنياً الأغنية القديمة ، والأجسام ما تزال تحتشد
بالشحارير . الأبواق تكف عن الزعيق علينا من بعيد ، ويتألف الزمن
العظيم مرة أخرى ، من الأيام والليالي المفعمة بالسحر ، بالأصباح
والأماسي ، بساعات الظهيرة وساعات الشفق ، ويعاود قلب العالم
العليل خفقانه . ان نستلقي على المروج النضرة ، ضاغطين آذاننا
إلى الأرض ، أو نحنني من أعلى الجسر إلى الماء ، أو نطيل التحديق
والتأمل في السماء المتألقة ، تلك هي طريقتنا في الاصغاء إلى ذلك
القلب الكبير الصافي ، وما هو إلا قلب الأم ، وما نحن إلا أطفالها .

وحين أفكر اليوم في ذلك المساء الذي انفصلت فيه عن هذا
المكان ، أسمع اصدااء الأسى تأتي من مكان ناء إلى حيث الزرقة
والأرج يجعلان كل ما يمت إلى المعارك والصيحات بصلة .

وسياتي يوم لن يبقى فيه شيء من كل تلك الأشياء التي شوهت
حياتي وملأتها بالحزن ، واطرعتني بالكرب مراراً . سياتي يوم ، بعد أن
يصل الانهاك حده ، يعم فيه السلام ، وتجمعي الأرض الرقوم
بموطني . لن تكون تلك خاتمة للأشياء ، بل طريقة للولادة
المتجددة ، للاغتسال والهجوع حيث القديم والذاوي يفرقان ،
وحيث الفتى والجديد يشرعان بالتنفس .

عندئذ ، وبافكار مختلفة ، سوف أتمشى على طرقات كهذه ،
مصغياً إلى الجداول ، مسترقاً السمع إلى ما تقول السماء في المساء ،
مراراً وتكراراً .

عالم مجيد

إني لأحس بها المرة تلو الأخرى،
ما هم شيخاً كنت أم يافعاً:
سلسلة الجبال في الليل،
المرأة الصامته على الشرفة،
الشوارع البيضاء تحت أشعة القمر وهي تنعطف مبتعدة برقة
إن ذلك ليمزق قلبي شوقاً للخروج من جسدي.

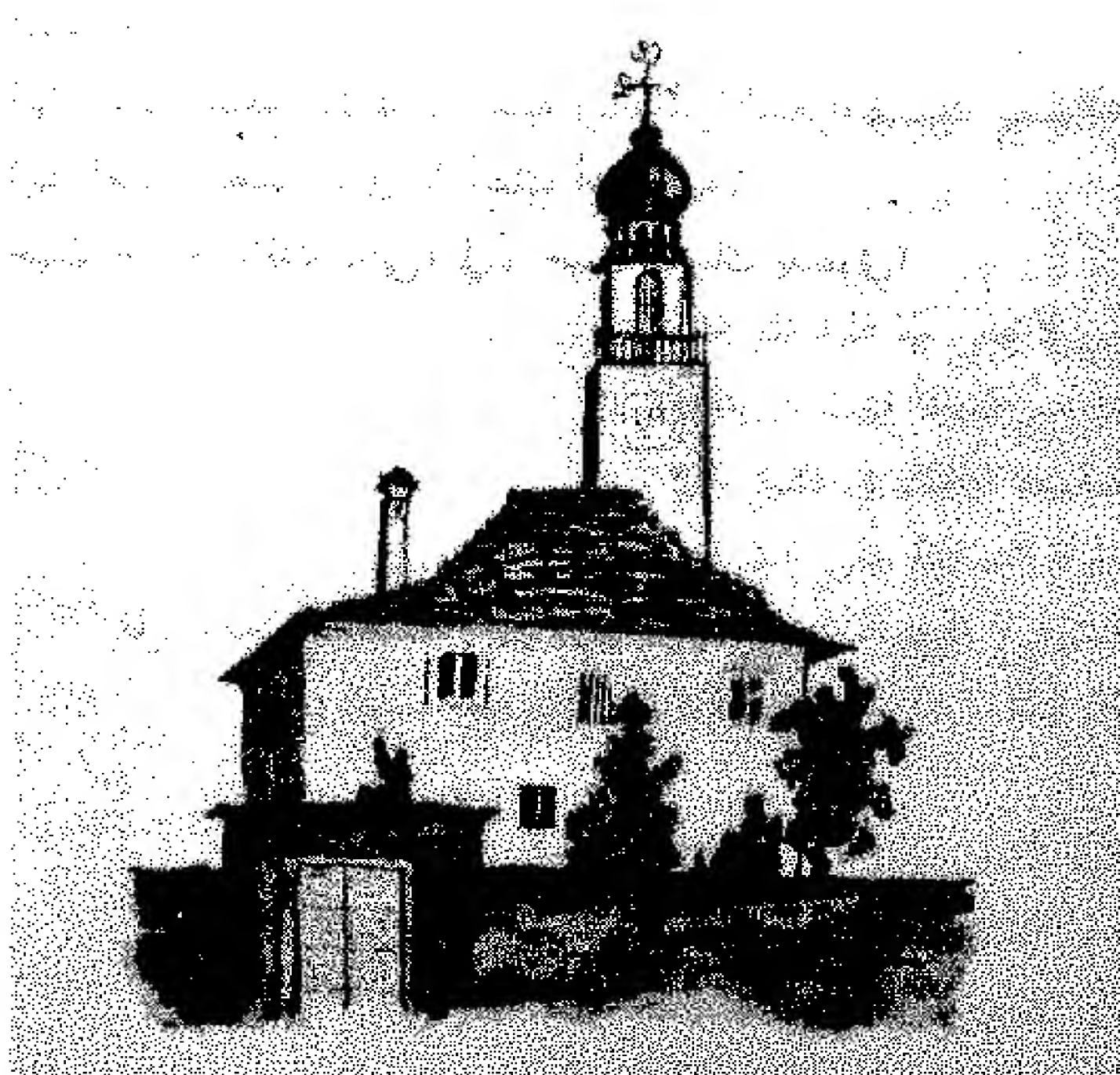
أيها العالم المحترق، أيتها المرأة البيضاء على الشرفة،
أيها الكلب النابح في الوادي، والقطار المسافر إلى البعيد،
أي كاذبين كنتم وما كان أمر خداعكم لي
ومع ذلك انتهيتم لتكونوا أحلى أحلامي وأوهامي.

غير مرة جربت الدرب الرابع «للواقع»،

بأشياءه المحدودة بالمهنة والقانون والنزي والمورد المالي،
ولكنني، مستعيداً بصيرتي وحريتي، فررت وحيداً
إلى الجانب الآخر، حيث الأحلام والحماقة المباركة.

أيتها الريح اللافحة نخل الأشجار ليلاً، أيتها المرأة الغجرية
السمراء،

أيها العالم الطافح بالمتناقضات الغبية وبأنفاس الشعراء،
أيها العالم العظيم الذي لا أنفك أعود إليه،
حيث حرارة آلائك توميء لي، حيث صوتك يدعوني!



الأبرشية

إنه لما يجعلني أحس بالوحدة والحنين أن أنجول ماراً بهذا المنزل الجميل - تملكني رغبة بالسكينة والسلام، وبحياة عادية؛ أتوق إلى أسرة مريحة، ومقعد في الحديقة، ورائحة تصدر عن مطبخ لطيف، وأيضاً إلى غرفة مكتب، وتبغ، وكتب عتيقة. لكم ازدرت اللاهوت، في يفاسي، وسخرت منه! أما اليوم فأرى أنه النظام والجمال والسحر، وإن لا علاقة له بسخافات الأمتار والمقاييس، ولا يعير اهتماماً لتاريخ العالم الضيق، لا إطلاق النار المستمر فيه، وبلاغات الانتصار، والخيانات؛ يتعامل اللاهوت بدمائة مع الجواني، مع الأشياء الأثيرة، التسامي والخلاص، الملائكة والأسرار المقدسة.

كم سيكون رائعاً لرجل مثلي أن يجعل مقامه هنا، أن يكون قساً خصوصاً رجل مثلي! ألن أكون الصنف المناسب تماماً من الرجال -

متمشياً روحه وجيشة بثوبي الأسود النظيف، مولياً عنايتي بكياسة،
وحتى بروحانية ورمزية، لعرائش الكمثرى في الحديقة، مواسياً
المحتضرين في القرى، قارئاً الكتب اللاتينية القديمة، مصدراً
الأوامر بلطف الى الطاهي، وفي أيام الأحاد مجتازاً على مهل الدرب
المرصوف باتجاه الكنيسة، وفي ذهني موعظة مؤثرة؟

حين يسوء الطقس، فلسوف أوقد ناراً حامية، وأتكىء أنا بعد آن
على أحد المواقد ذوات الأجر الأخضر أو الأزرق، ولسوف اتخذ
سمتي أحياناً قرب النافذة وأهز رأسي للطقس.

أما حين يصفو الجو، فسأتردد كثيراً على الحديقة، لأقلم الكروم
وأحكم ربطها بالعرائش، أو أقف الى نافذة مشرعة مصعداً البصر
الى الجبال وهي تتورد وتتوامض منبهة من لونها الرمادي والأسود.
آه، وسألقي بنظري رامقاً بمحبة كل جوال يجوز منزلي الهاديء،
لسوف أتابعه متعاطفاً معه، متمنياً له الخير، مباركاً خطواته لأنه
اختار سبيلاً أفضل من سبيلي، لأنه في الحقيقة والواقع ضيف
وسائح على الأرض، بدلاً من اتخاذ دور السيد والمعلم كما فعلت
أنا.

ربما سأكون من هذا النوع من القساوسة. ولكن من المحتمل ان
اكون نوعاً مختلفاً، أقتل الليالي في مكتبي الكثيب مصطحباً زجاجة
من الخمر الثقيلة، متشاجراً مع آلاف الشياطين، أو أستيقظ من

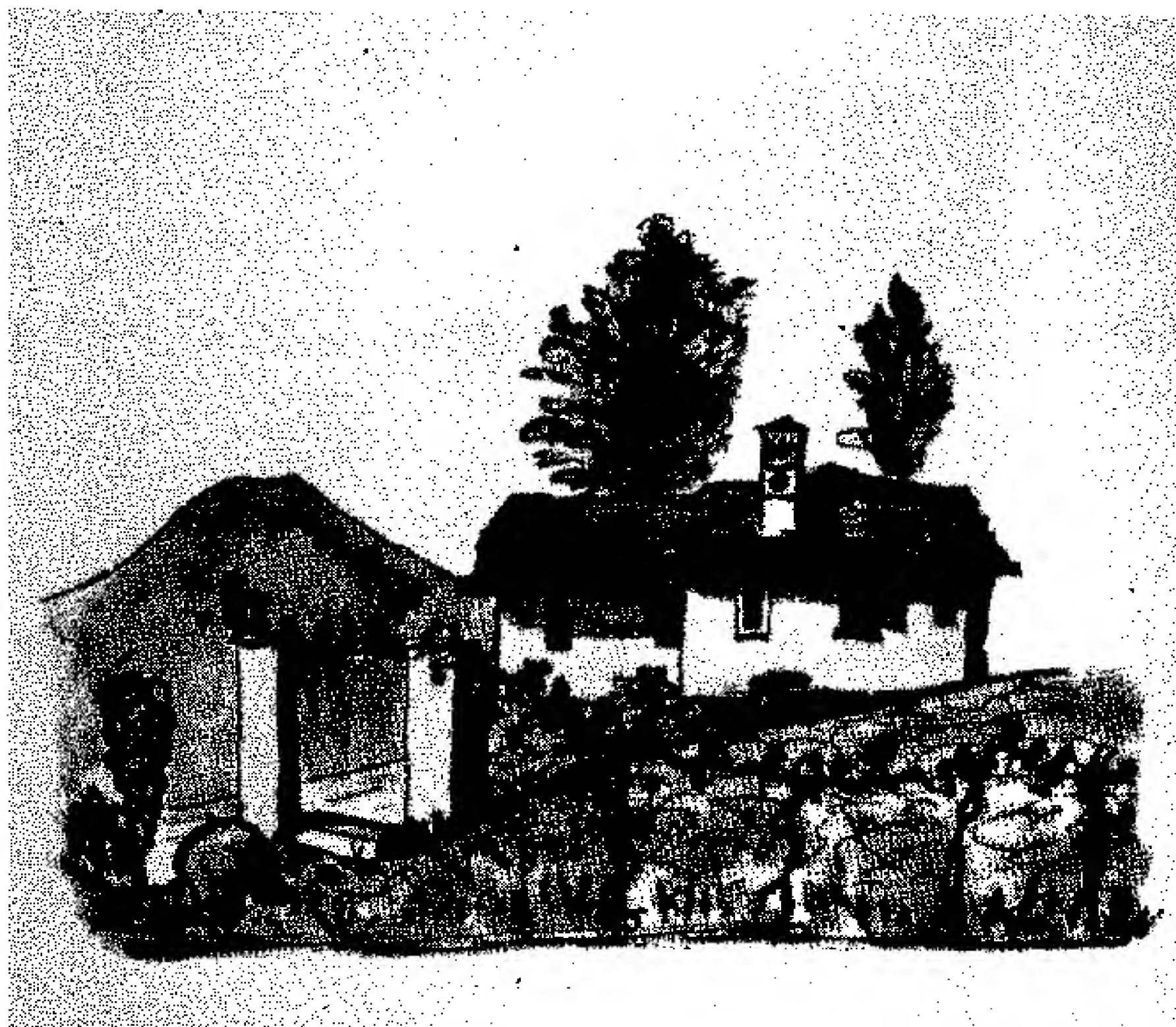
النوم فزعاً، على كوابيس مروعة سببها ضميري، يُثقلني احساس
بالذنب لارتكابي خطايا غامضة مع امرأة شابة كانت قد قصدتني
للاعتراف. أو أني سأقفل بوابة حديقتي الخضراء وأدع القندلفت
هناك مواصلاً قرع الجرس، ولن أولي أي اكتراث لمركزي في
الكنيسة، أو لمكانتي في العالم، سوف أضطجع على أريكة عريضة
وأدخن، وأكون كسولاً فحسب. أكسل من أن أخلع ملابسي في
الليل، وأكسل من أن أنهض من فراشي في الصباح.

ولجعل الأمر أكثر وضوحاً، فاني لن اكون حقاً قساً في هذا المنزل.
لسوف يكون لي المزاج المتقلب ذاته الذي لجوال مسالم، لسوف أكون
الرجل نفسه الذي هو أنا الآن. لن اكون في الواقع قساً ابداً، محتمل
أن أكون بشكل سطحي لاهوتياً همجياً، ذواقه خمور في بعض
الأحيان، وفي أحيان أخرى مجرد كسول بصورة فاحشة، محاطاً
بزجاجات النبيذ، مستغرقاً في التفكير بفتيات يصلحن للزواج،
أحياناً شاعراً، أو ممثلاً إيمائياً، وأحياناً رجلاً يحن ويتلهف، طالوياً
على الألم ينخر في قلبه المعدم.

وهكذا يتساوى لدي ان أحقق إلى البوابة الخضراء، وإلى
العرائش، إلى الأبرشية الفاتنة من داخلها أو خارجها، ان أطيل
النظر بتشوف من الشارع نحو النافذة حيث يقطن الرجل الروحاني،
أو أن أحذر بصري من النافذة راقباً بحسد الجوالين. ما الذي
يمكن ان يعنيه للحياة كوني قساً، أو كوني متشرداً على الطرقات؟

سيان كل هذا عندي .. عدا بضعة أمور عميقة : إني لأستشعر الحياة ترتعش في كيائي، على لسالي، وحتى أخمص قدمي، في رغباتي أو في عذاباتي، أريد لروحي أن تكون روحاً دائمة الترحال، قادرة على العودة في مئات الأشكال، أريد أن أحلم بنفسي قساً وجوّالاً، طاهية وقاتلاً، طفلاً وحيواناً، وأكثر من أي شيء آخر طائراً وشجرة؛ ذلك أمر بالغ الضرورة، وإني لأريده، واحتاج إليه لأتمكن من مواصلة العيش، وفي الآن الذي يعتريني فيه الشعور بضيق هذه الامكانيات، وبأنّ مقبوض فيما يدعى الواقع، فلاي آنشد أفضل الموت .

استندت إلى الفسقية ورحت أرسم تخطيطاً للأبرشية ببوابتها الخضراء، التي مسّت قلبي أكثر من غيرها، وبرج الكنيسة في الخلفية . محتمل انني قد جعلت البوابة أشد اخضراراً مما هي عليه في الواقع، ولعلي زدت في طول البرج قليلاً . ولكن لا بأس . فكل ما يهم هو أن هذا البناء، ولمدة ربع ساعة كان بيتي . سأفكر ذات يوم بهذا الأبرشية ويتنامى بي الحنين إليها، على الرغم من أني ما فعلت سوى الوقوف خارجها وتأملها، وبرغم معرفتي بخلوها من أي قاطن كان . لسوف يترعني الحنين إليها كما لو أنها كانت بيتي حقاً، أحد الأماكن التي أمضيت فيها شطراً من طفولتي سعيداً . لأنني هنا، ولربع ساعة من الزمن كنت طفلاً، وكنت سعيداً .



المزرعة

كلما نظرت الى هذا السريف السعيد الهانىء، على السفوح الجنوبية للألب، شعرت وكأنني عائد من منفى، وأنني على الجانب الصحيح من الجبال من جديد. هنا تشرق الشمس بألفة أكثر، وتتورد الجبال بحمرة أعمق؛ هنا الكستناء والأعناب، اللوز والتين، والبشر الطيبون، المتحضرون، الكرماء على الرغم من كونهم فقراء. وكل ما يتحلون به من انباط معيشتهم يتكشف عن روعة فائقة، ودقة إحكام، ويوحى بالألفة والبساطة البليغتين، كما لو كان من صنع الطبيعة ذاتها. البيوت، الجدران، الأدرج الموصلة إلى الكروم، الممرات، الغراس الحديثة، المساطب - ليست بالجديدة ولا القديمة، بل تبدو كما لو أنها لم تستنبط من الطبيعة وتحاكيها فحسب، ولكن ببساطة، كما لو أنها بُعثت من الطبيعة، كما تُبعث الحقول، والأشجار والطحالب. أسوار الكروم، البيوت وسقوف البيوت، كلها مصنوعة من الحجر الأسمر ذاته، ويشبه بعضها

بعضاً، كأنها انخوات. مامن شيء غريب هنا أو عدواني، أو يتسم بالعنف، فكل الأشياء تبدو دافئة، هادئة، ومترعة بالود.

إنخر أي مكان تشاء للجلوسك، على جدار، أو حجر، أو جذع شجرة، على العشب أو الأرض، أينما تكون فستجد نفسك محاطاً باللوحات والقصائد، وسيرجع العالم اصداً الجمال والهناء من حولك.

هذه هي المزرعة التي يشيد فيها فقراء المزارعين مساكنهم، إنهم لا يملكون أبقاراً، بل بعض الخنازير والدجاج فحسب؛ ويزرعون العنب والقمح والفواكه والخضروات. المساكن هنا تبني برمتها من الحجر، حتى الأرضيات والأدراج؛ أما الدرج المنحوت نحتاً فيؤدي، عبر عمودين حجريين، إلى الفناء الداخلي. وأنى وجهت بصرك طالعك وميض البحيرة الأزرق من خلال النباتات والحجارة.

يسدو ان الأفكار والأحزان قد تخلفت على الطرف الآخر من الجبال. فبين البشر المعذبين والممارسات البغيضة، على المرء ان يفكر ويحزن كثيراً وإنه لمن أصعب الأمور، هناك، وأشدّها أهمية، ان تجد سبباً واحداً للبقاء على قيد الحياة. بأية طريقة اذن ينبغي على المرء ان يواصل العيش؟ اذ من شأن الشقاء المطبق ان يجعل الانسان عميق التفكير. ولكن هنا لا توجد أية مشكلات، فالوجود المحض لا يحتاج إلى أي مسوغ، ويغدو التفكير مجرد لعبة، ويكتشف المرء

ان: العسالم جميل، والحياة قصيرة. وتبقى بعض الاشواق تنتظر
إشباعها، كم أود لو أملك زوجاً آخر من العيون، وردة إضافية. لقد
مططت ساقى على العشب، ويا ليتها كانتا أكثر طولاً.

أتمنى لو أنني كنت عملاقاً، ليتسنى لي ان أوسد رأسي عند ثلوج
أحد جبال الألب، ممدداً جسدي بين قطعان الماعز، بين أصابع
قدمي تعبث بمياه البحيرة العميقة. هناك سوف استلقي ولن أقوم
ثانية ابداً، تنمو الشجيرات بين أصابعي، وتنبت زهور الألب البرية
في شعري؛ سوف تغدو ركبتي تلالاً ألبية، وتعرش على جسدي
الكروم والبيوت والكنائس. وهكذا، لعشرة آلاف سنة سوف أتمدد
هناك، محققاً في السماوات، محققاً في البحيرة. حين أعطس تهب
عاصفة رعديّة. حين أتنفس يدوب الثلج وتتراقص الشلالات.
وحين أموت، فإن العالم بأسره يموت. عندئذ أرحل قاطعاً محيطات
العالم، لأعود بشمس جديدة.

أين سأبيت الليلة؟ من يبالي! ما الذي يجري في العالم؟ هل تم
اكتشاف آلهة جديدة، شرائع جديدة، حريات جديدة؟ من يبالي!
ولكن في الأعالي هنا، تزهر ورود الربيع، حاملة زغبها الفضي على
بتلاتها، والريح الطرية الرخاء تغني في الأسفل خلل أشجار الحور،
وبين عيني والسماء نحلة ذهبية غامقة، تحوم وتطن - إني بهذا أبالي.
هي ذي تصدح أغنية الفرح، غنية الأبدية وهي لتاريخ الوحيد
الذي أعترف به للعالم.

مطر

مطر ناعم ، مطر صيفي
يهمس من بين الأجوات ، يهمس من بين الأشجار .
آه ، كم هو رائع وعامر بالنعمى
ان تحلم ونحس بالرضى .

طويلاً مكثتُ في الألق الخارجي
وما اعتدت مثل هذا الجيشان :
ان أكون في بيتي داخل روعي ،
وان لا أرغم على العيش في أي مكان آخر .

لا ابتغي شيئاً ، لا أتوق إلى شيء ،
أدندن برفق أصوات الطفولة ،
وأصل بيتي ذاهلاً

عبر الجبال الدافئة للأحلام.

كم أنت ممزق أيها القلب،
كم أنت سعيد لتحريث بلا تبصر،
لتفكر بلا شيء، لتجهل كل شيء،
سوى أن تتنفس، سوى أن تحس.



الاشجار

لقد كانت الأشجار بالنسبة لي على الدوام الواعظ الأشد نفاذاً وتأثيراً. اني لأبجلها وهي تعيش في قبائل او مجموعات أسرية، في الغابات والبساتين. ويزداد تهجيلي لها في وقوفها منفردة. إنها أشبه ما تكون بالأشخاص المتوحدين. ولا أقصد النساء الهاربين من ضعفهم، بل العظماء المعتزلين من البشر، أمثال بيتهوفن ونيتشه. في أغصانها الأعلى سموماً يندفع حفيف العالم، بينما تضرب جذورها في اللانهاي؛ بيد أنها، رافضة وقوفها العاجز هناك، تناضل بكل ما في حياتها من عزيمة وقوة لبلوغ هدف واحد: ان تحقق ذاتها وفق قانونها، ان تبني شكلها الخاص، ان تعلن عن وجودها. وما ثمة أقدر ولا أجدر بالاعتداء، من شجرة حازت الجمال والقوة. حين تقطع شجرة، وينكشف جرحها المميت للشمس، فان في ميسور المرء ان يقرأ بجلاء تاريخها كله منقوشاً في مقطع جذعها: في الحلقات الدالة على أعوام عمرها، في ندوبها، كل الصراعات

والآلام، كل الأمراض، كل الهناءات والرخاءات، منقوشة هناك بأمانة ودقة، سنوات الضيق، وسنوات البهجة، الصمود أمام الهجمات، والثبات في وجه العواصف وما من صبي في القرية إلا ويعرف أن الخشب الأقسى والأنبل هو ذاك المتميز بحلقاته الأضيق، وأن في قنن الجبال وحسب، ووسط الأخطار المتلاحقة تنبت الأشجار المثالية، الأشجار الأشد بأساً ومنعة.

الأشجار معابد قدسية. من يعرف كيف يكلمها، من يعرف كيف يصغي إليها، يمكنه تعلم الحقيقة. إنها لا تعظ بالقاء التعاليم والوصايا، ولكنها تبشر، غير معنية بالتفاصيل، بالقانون الأقدم للحياة.

تقول الشجرة: النواة مخبوءة في، والشرارة، والفكرة، أنا حياة مقبوسة من الحياة الأبدية. فريدة محاولة الأم الأبدية ومغامرتها في صني، فريد شكل وعروق جلدي، فريدة أقل نامة تصدر عن أوراق أغصاني، وأصغر ندبة على لحائي. لقد كُوتُ ليتبدى الأبدى في أدق تفاصيلي وأشدّها خصوصية.

تقول الشجرة: قوتي تكمن في ثقتي. لست أعرف شيئاً عن آبائي، ولا أعرف شيئاً عن آلاف الأبناء الذين ينبثقون مني كل عام. إنني أحيى بالسر المسودع في بذرتي حتى أبلغ النهاية، وما من شيء آخر يعنيني. إنني أثق بأن الله في داخلي، وأثق بقدسية عملي، وبهذه الثقة ومن خلالها أحيى.

حين تشتد وطأة البلوى علينا، ولا يعود لنا من القدرة ما يجعلنا
نحتمل المزيد من الحياة، فإن لدى الشجرة ما تقوله لنا: إهدأوا!
إهدأوا! انظروا إليّ! الحياة ليست سهلة، وليست صعبة كذلك.
تلك أفكار صبيانية وسخيفة. دعوا الله يلق كلمته فيكم، وستنمو
أفكاركم في صمت. إن ما يرضيكم هو أن دروبكم تقودكم بعيداً
عن الأم والوطن. ولكن كل خطوة تخطونها وكل يوم يمر عليكم يعود
بكم ثانية إلى حيث الأم. ليس السوطن هنا ولا هناك، إنه في
داخلكم، أو لا وجود له البتة.

يمزق قلبي التوق إلى التجوال كلما تنأى إلى سمعي حفيف
الأشجار وهي تحتك بالنسائم المسائية. لو أن أحداً أطل الانصات
بصمت إليها لتجلى توفه ذاك عن جوهره ومعناه. فهو ليس هروباً عما
يقاسيه المرء، على الرغم من أنه يبدو كذلك. بل هو شوق إلى
الوطن، وإحياء للذكرى الأم، ويبحث عن مجازات جديدة للحياة.
إنه توفى يقود السوطن. كل الدروب تؤدي إلى الوطن، كل خطوة
ولادة، كل خطوة موت، وكل قبر أم.

وهكذا تتابع الأشجار حفيفها في المساء، بينما نقف نحن
باضطراب أمام أفكارنا الحمقاء. للأشجار أفكار مديدة، ولها نفسها
الطويل والهادئ، تماماً كما أن لها أعماراً. أطول من أعمارنا. إنها أكثر
حكمة منا، ما دمنا لا نلقي سمعنا إليها. ولكن عندما نتعلم كيف
نصغي إلى الأشجار، فإن الأيجاز والعجلة والطيش الطفولي لأفكارنا

تحرز متعة لا تضاهي . ومن تعلم كيف يصغي الى الأشجار لا يعود
يبتغي ان يكسب شجرة، انه لا يبتغي إلا ان يكون ما هو عليه .
ذلكم هو الوطن . تلكم هي السعادة .

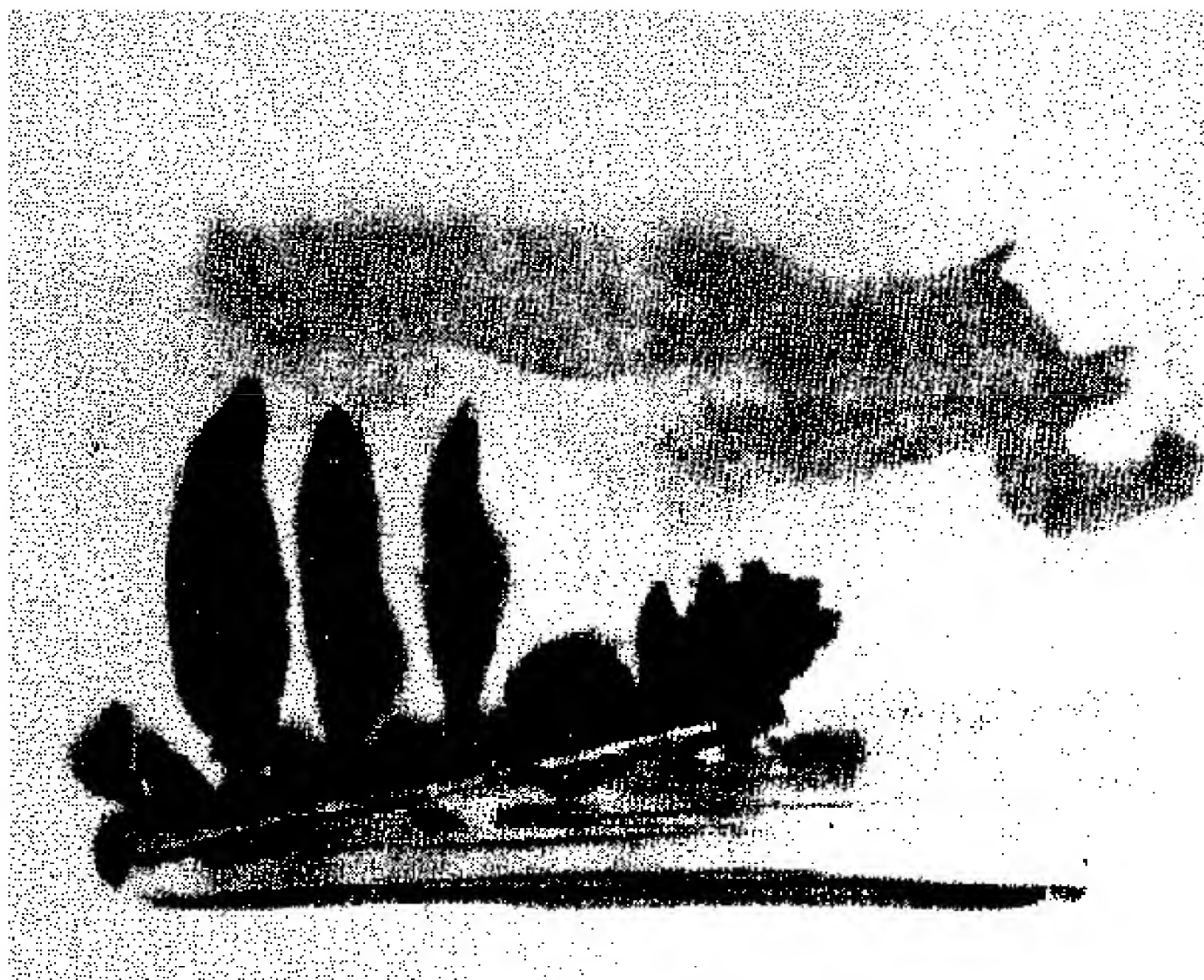
فجر الرسام

الأراضي تنتج الحنطة وتكلف الأموال .
المروج مسيجة بالأسلاك. الشائكة ،
العوز الشديد والجشع يضطجعان جنباً إلى جنب ،
كل الأشياء تبدو يباباً مقفلاً .

بيد أني بعيني أرى ضرباً آخر من الأشياء
يواصل الحياة ؛ فالنفسجي ينحسر مبتعداً
فيما يتهدل الأرجواني على عرشه ، وأنا أغني أغنية براءتي .

أصفر بعد أصفر ، وأصفر إلى جانب أحمر .
الأزرق الفاتر يتحول الى لون الورد .
الضوء واللون يتفافزان من عالم الى آخر ،
يتقوسان ويتصاديان عميقاً في مَوران الحب .

الروح تتسجد، مبرئة كل العلل،
والخضرة تهزج خارجة من الينابيع حديثة الولادة،
سوف يسهم العالم في خلق النقاء والمعنى،
وستنمو الأفتلة مشرقة مبتهجة.



طقس ماطر

السماء تحاول أن تمطر، فالهواء الرمادي الرخو معلق بقلق فوق البحيرة، وأنا أسير على الشاطئ قرب النزل الذي أقيم فيه.

ثمّة طقس ماطر يبحث على الانتعاش والابتهاج. طقس اليوم ليس كذلك. فالرطوبة تسقط وتصعد بلا انتهاء في الهواء الكثيف. والغيسوم لا تفي تتفتت وتتلاشى. لتحل محلها غيسوم جديدة على الدوام. فيها يسود السماء تردد ومزاج سيء.

كنت أحسب أن هذا المساء سيكون أكثر صفاء وامتاعاً لي، تناول العشاء وقضاء الليل في نزل صيادي الأسماك، المشي على الشاطئ، الاستحمام في البحيرة، وربما السباحة تحت ضوء القمر. وبدلاً من كل هذا، سماء داكنة مروعة تطلق بعصية وإبلا نكداً من المطر على البحيرة، وأنا أنسل مبتعداً، ليس أقلّ عصبية واعتكار

« المزاج » عبر المنظر الطبيعي المتغير . ربما كنت قد أسرفت في احتساء
النبيذ ليلة البارحة ، أو أنني لم أشرب كفاية ، أو أنني حلمت بأمور
مكشوفة . يعلم الله ما السبب . المزاج شيطاني ، الهواء مترهل مهتاج ،
أفكاري مكفهرة ، وما من ومضة واحدة في العالم .

« أتناول الليلة سمكاً محمراً ، وأتجرع كمية كبيرة من النبيذ الأحمر
الداخلي . وعن قريب سنعيد للعالم بعضاً من وميضه المفقود ، وسنجد
قدرة أكبر على احتمال الحياة . سوف نشعل النار في موقد النزل ،
حتى لا أكون مضطراً لرؤية أو تحمل هذا المطر الكسول المترخي .
سوف أجلس وأدخن سيجاراً طويلاً من النوع الفاخر ، رافعاً كأس
نبيذ في مواجهة اللهب ، حتى تتلأأ كجوهرة بلون الدم . سوف
نجهل كل شيء على ما يرام . المساء سوف يمر ، وسيكون بإمكانني
المجوع ، ففي الغد كل شيء سيتبدل .

في الماء الضحل المتجمع على امتداد الشاطئ ، تتساقط حبات
المطر نائرة رشاشاً خفيفاً ، وفي الأشجار الرطبة تصخب ريح باردة
مخففة ، الأشجار التي تلتصع بلون الرصاص كأسماك ميتة . لقد
بهمق الشيطان في الحساء . لا شيء يبدو مستقراً . لا شيء في وضعه
الصحيح . لا شيء يدعو إلى البهجة والدفع . كل شيء مقفر ،
حزين ، كره . كل الأوتار ناشزة عن النغم ، وكل الألوان باهتة .

إذا أعرف سبب كل هذا . ليس النبيذ الذي شربته أمس هو
السبب ، ولا السرير المتعب الذي نمت عليه ، ولا حتى الطقس

الماطر. الشياطين كانت هنا، وشوشت بزعيقتها الحاد انسجام موسيقي، وترأ بعد وتر. ويعود القلق ليحل من جديد، قلق متحدر من أحلام الطفولة، من قصص الجنيات، مما كان على صبي المدرسة ان يدرسه ويخبره. القلق، الوقوع في شرك الناجز الراسخ، السوداء، والمقت الشديد. كم هو عديم الطعم هذا العالم! كم هو بغض ان يتعين على المرء ان ينهض من جديد في الغد، ليأكل من جديد، ويعيش من جديد! إذن، ما الذي يدفع الواحد منا للمضي في الحياة؟ لماذا نحن طيبون إلى هذا الحد من البلاء؟ لماذا لم نلق بأنفسنا في البحيرة منذ زمن بعيد؟

ما من مفر. لا يمكنك ان تكون متشرداً وفناناً وتبقى في الآن نفسه مواطناً متهاشكاً، صالحاً، وإنساناً معافى. اذا كنت ستشرب حتى الثمل. فعليك ان تقبل الصداق الشديد الذي يسببه الثمل. انت تقول أجل، لأشعة الشمس، ولأخيلتك النقية، إذن عليك ان تقول أجل، أيضاً، للقذارة والغثيان. كل الأشياء في داخلك، الذهب والطين، الفرح والألم، ضحك الطفولة ورهاب الموت. تقبل كل شيء، ولا تتجنب شيئاً، لا تحاول ان تكذب على نفسك. انت لست مواطناً متهاشكاً، انت لست يونانياً، لست متآلفاً، أو سيد نفسك، ما أنت إلا عصفور في عاصفة. دعها تعصف! دعها تستلم زمامك! ما أكثر ما كذبت! آلاف المرات، حتى في قصائلك وكتبك، لقد لعبت دور الانسان المنسجم، الانسان الحكيم، السعيد، الانسان المستنير. وبالطريقة ذاتها، يلعب المهاجمون في الحرب أدوار

الأبطال، فيما تُنتزع أحشاؤهم . يا الهي ، يا له من قرد مسكين ، من
مبارز الخيالة في المرأة ، هذا الانسان - خصوصاً الفنان - خصوصاً
الشاعر - خصوصاً أنا !

سوف أتناول سمكاً محمراً ، وأشرب شراب النوسترانوبكأس
سميكة ، وأدخن ببطء سيجاراً طويلاً ، وأبصق في الموقد المتوهج .
سأفكر بأمي ، وأحاول اعتصار بضع قطرات من الحلاوة ، من قلقي
وحزني . بعدئذ سوف استلقي على سرير المتعب قرب الجدار
الهزيل ، وأصغي الى الريح والمطر ، أتصارع مع دقائق قلبي ، أتمنى
الموت ، أخشى الموت ، وأنادي الله . إلى ان ينتهي كل هذا ، وتمحي
الشكوك . إلى ان يدعوني شيء أشبه بالنوم والعزاء . كذلك كان
الأمر حين كنت في العشرين من عمري ، وهكذا هو اليوم ، وهكذا
سوف يستمر ، حتى النهاية . على الدوام ، مراراً وتكراراً ، سيتوجب
عليّ أن أدفع ثمن جمال الحياة وحبّي لها ، بأيام مثل هذه . على
الدوام ، مراراً وتكراراً ، سوف تأتي أيام وليال مثل هذه ، محملة
بالقلق والمقت والشك . وسوف أحافظ على بقائي حياً ، وسوف لن
أنتحلّ عن حبي للحياة .

آه ، كم بدناءة وحقد تتعلق الغيوم فوق الجبال ! كم هو مزيف
وفارغ ذلك الضوء المنبسط المنعكس على سطح البحيرة ! وكم يبدو
أحمق ومضطرباً كل ما يخطر لذهني هذه اللحظة .



الكنيسة

لا بد ان الكنيسة الوردية اللون، بسقفها المائل إلى الأمام، قد بناها رجال طيبون، يتمتعون بأرق المشاعر وأتقاها.

كثيراً ما تردد على مسمعي الرأي القائل بأن الرجال الأتقياء لم يعد لهم وجود البتة، في هذه الأيام. وبالسهوة نفسها يمكن القول ان هذه الأيام خلوا من الموسيقى والسماء الزرقاء. إني لعلى يقين من وجود الكثير من الرجال الأتقياء. أنا نفسي رجل تقي. رغم أني لم أكن كذلك دائماً.

وقد تختلف سبل بلوغ التقوى وتباين اختلاف وتباين البشر. أما فيما يتعلق بي فهي تُبلغ من طريق الآثام والأحزان، طريق الإفراط في تعذيب النفس عبر الحماقات الجديرة باسمها، وأدغالها البدائية. لقد كنت روحاً طليقة، وظننت ان التقوى هي اعتلال النفس.

متقشفاً كنت، فرحت أغرز أظفاري في لحمي، غير مدرك ان التقوى إنها تعني الرخاء والسكينة.

ان تكون ثقياً هو ان تكون مفعماً بالثقة. ولا شيء غير ذلك. الثقة ملك البسطاء الأصحاء المسالمين من البشر، من الأطفال، والمخلوقات الوحشية. أما الذين يفتقرون من بيننا إلى البساطة والنزعة المسالمة فعليهم ان يبحثوا عن الثقة بالطرق الملتوية. أن تملأ نفسك بالثقة، تلك هي البداية. ليس بحسبان الثواب والعقاب، ولا بحس الخطيئة والضمير المبكّت، ولا بكبح شهوات الجسد والتضحية بها، يكتسب الايمان. فما تلك غير مساع تتودد آلهة تقيم خارجنا. أما الاله الذي ينبغي الايمان به فهو في داخلنا. وذاك الذي يقول لا لنفسه، ليس في وسعه ان يقول نعم لله.

آه يا كنائس هذا البلد الحبيبة الحميمة! انك لتحملين علائم ونقوش إله ليس بإلهي. وان أتباعك المؤمنين ليرتلون صلوات أجهل كلماتها. ومع ذلك يمكنني ان أتلو صلاتي فيك، تماماً كما أتلوها في غابة سنديان أو في مرج جبلي اخضر. صفراء أو بيضاء أو وردية اللون تزهرين وسط الاخضرار، كأغنيات ربيع الشباب. وما من صلاة عندك إلا مقبولة ومقدسة.

مقدسة هي الصلاة، مطهرة من الخطايا، كأنها الأغنية. وذاك الذي يصلي حقيقة، لا يرجو شيئاً، إنه يعيد عرض حاله ويعدد احتياجاته، مغنياً معاناته وشكرانه، كما يغني صغار الأطفال. هكذا

كان يغني النساك المباركون في خلواتهم بين الأيسائل ، كما يبدوون في رسومات فناء كنيسة بيتزا - أروع تصاوير العالم قاطبة . وهكذا تغني الأشجار ، والحيوانات كذلك . في لوحات رسام ماهر ، كل شجرة وكل جبل يصلي .

وأيّ كان ذلك القادم من بيثة بروتستانتية ورعة ، فإن عليه ان يقطع أشواطاً طويلاً في البحث قبل ان يجد صلاة كهذه . إنه ليعرف عذابات الضمير الجهنمية ، ويعرف الوحز المميت للتفسخ الجسدي ، لقد خبر كل أنواع الانقسام والألم واليأس . ولسوف يدهشه فيما بعد ، وهو ماضٍ في دربه ، ان يرى كم كان بسيطاً ، وطفولياً ، وممجداً بالفطرة ، ذاك الذي كان يلتمسه بمثل تلك الطرائق الشائكة . غير ان الدروب المغطاة بالأشواك ليست بعديمة القيمة . فالمسافر العائد ليس كمثّل الرجل لم يبارح موطنه . إنه أكثر صدقاً ودفئاً حين يحب ، وأشدّ انعتاقاً من تسلط مشنوية الاستقامة والضلال . فالاستقامة فضيلة أولئك القابعين في بيوتهم ، فضيلة عتيقة ، فضيلة البشر البدائيين . أما نحن الأكثر فتوة ، فلا حاجة لنا بها . نحن نعرف سعادة واحدة لا غير : الحب ، وفضيلة واحدة فحسب : الثقة .

أما أنت أيتها الكنائس ، فأحسد عليك مؤمنيك ، وأتباعك . المئات من المتعبدين الملقين إليك بعذاباتهم ، المئات من الأطفال الضافرين الأكاليل على أبوابك ، الموقدين الشموع في جنباتك . أما إيماننا ، التقوى التي حظي بها أولئك الذين أطلوا الترحال ، فهو

إيمان متوحد. والذين ما يزالون يحملون إيماناً قديماً لن يكونوا رفاقاً
لنا، وستظل تيارات الحياة تتدفق بعيداً عن جزرنا.

أقطف بعض الزهور من المرح القريب - زهرة الربيع،
والبرسيم، والأنقولية* وأنسقتها في الكنيسة. أجلس على حاجز
الشرفة تحت السقف المسائل، وأدندن أغنيتي التقية في سكينه
الصباح. قبعتي مركونة على الجدار البني، لتأتي فراشة زرقاء وتحط
عليها. ويعيداً في الوادي، يصفر قطار صغيراً خافتاً ورقيقاً، وعلى
الشجيرات هنا وهناك، ما تزال حبات الندى تتألق.

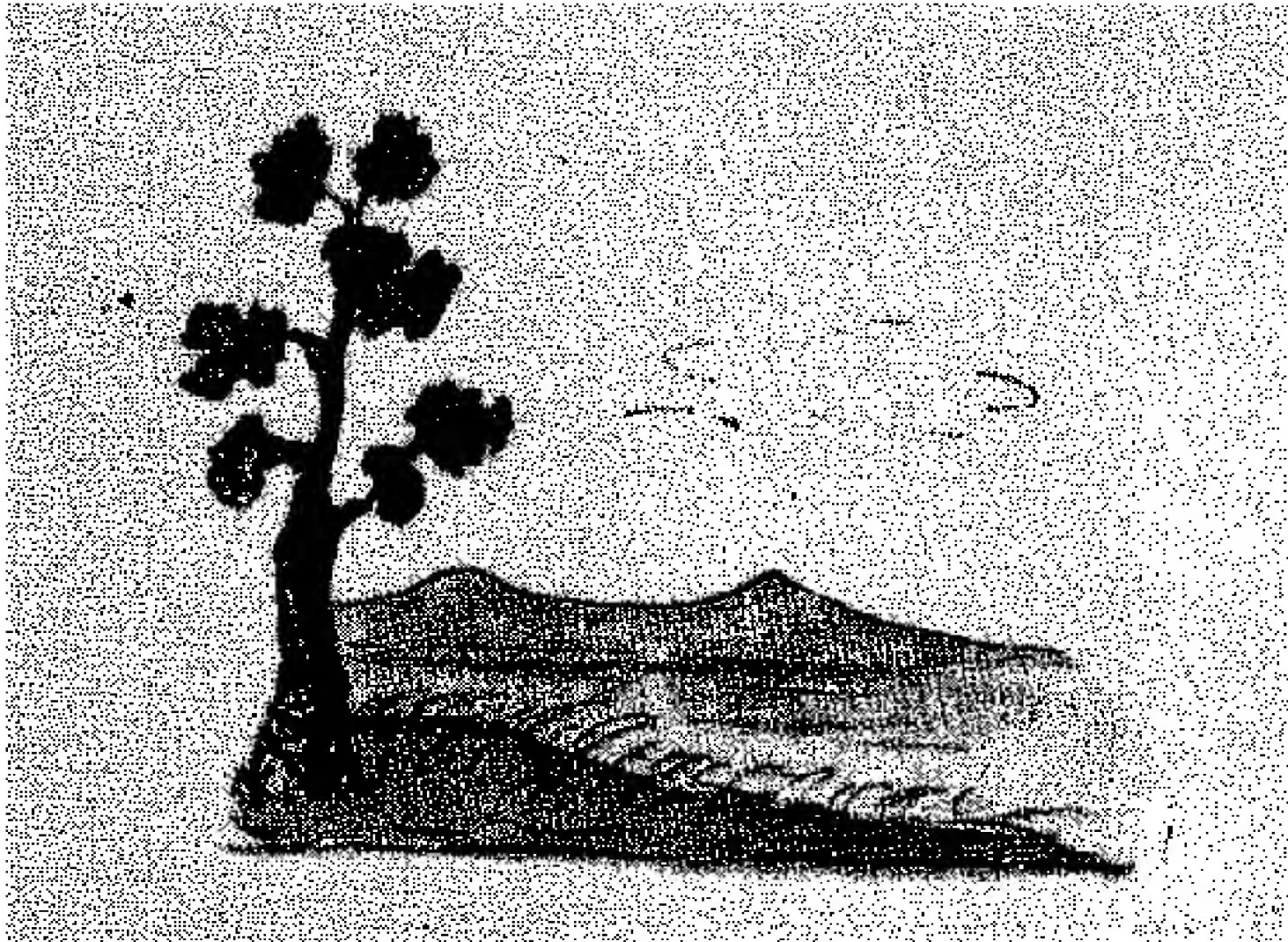
عبور الأشياء

من شجرة الحياة،
تساقط الأوراق حولي، واحدة إثر أخرى.
إيه، أيها العالم المبتهج بالنشوة،
كيف ملأتني أخيراً،
وجعلتني ثملاً!

أياً كان هذا الذي يتألق اليوم
فسيشملة الخسران عاجلاً.
ولن تلبث أن تقعقع الرياح
عابرة قברי الداوي،
فيها تنحني الأم بحنان
على طفلها الوليد.

عينها هما ما أطمح إلى رؤيته،
نظرتها المومنة نجمتي،
ولكل ما عدا ذلك أن يظهر ويضمحل،
كل شيء يموت، كل شيء ينجز خلاصه.

وحدها الأم الأبدية تبقى،
منها نحن أتينا،
وبإصبعها خطت أسمانا
بحبور على الأثير المتلاشي.



إستراحة الظهيرة

مرة أخرى تضحك السماء مشرقة ، وتراقص النسائم غامرة كل شيء . ومن جديد يرجع البلد النائي إليّ ، فالغريب عاد إلى موطنه . ذلك المكان عند الشجرة المطلة على البحيرة هو ملكي اليوم ؛ لقد وضعت رسماً لكوخ صغير مع بعض البقرات والغيوم ، وكتبت رسالة لن أرسلها إلى أحد . أفتح الآن حقيبة غدائي : خبز، نقائق ، جوز، شوكولاته .

على مقربة مني تقوم غابة البتولا حيث أرى الأرض وقد غطتها الأغصان اليابسة . أشعر برغبة في إشعال نار صغيرة ألتخذ منها رفيقاً مؤنساً أجلس إليه . أنفض واجمع بعض الأحطاب المناسبة ، أكوّمها وأدس تحتها الورق الجاف وأشعلها . يتصاعد خيط الدخان الرفيع ، ويتوأمض اللهب الأحمر متألقاً بغرابة تحت شمس منتصف النهار .

النقائق للذيذة ، سأبتاع المزيد من الصنف نفسه غداً . الله ، لو

كان لديّ بعض الكستناء لتحميميها!

بعد الانتهاء من تناول الغداء، أفرش معطفي على العشب، وأريح رأسي عليه، وأجمل بصري فيما حولي، فيما تصاعد خيط الدخان عالياً. ثمة موسيقى هنا، ثمة احتفال تقيمه الطبيعة. أفكر بأغنيات إشيندروف التي أحفظها عن ظهر قلب، ولا يخطر لي غير القليل منها، حتى أنني حينئذ لا أستطيع استحضار بعض القصائد. آخذ بترديد الأغاني، معتمداً بشكل جزئي على الحان «هوغو وولف» و «أوتمار سكوك». «من يشاق إلى جوال في أراض غريبة»، و «يا حبيبي العود الوفي» كانتا الأحب إلى نفسي. إنها أغان مفعمة بالحزن، بيد أن الحزن إنّ هو إلا سحابة صيف، تتألق خلفها الشمس والرجاء. ذلك هو إشيندروف، بأغنيات كهذه بذّ «موريك» و «لينو».

لو كانت أمي ما تزال على قيد الحياة الآن، لكنت فكرت بها وحاولت أن أبوح لها بكل شيء، أن اعترف لها بما ينبغي أن تعرفه عني.

وعوضاً عنها، هذه الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأسود، في حوالى العاشرة من عمرها، تمر عابرة. تتفحصني وناري الصغيرة، وتقبل مني بعض الجوز والشوكولاته، ثم تجلس إلى جانبي على الشعب، وتشرع بإخباري عن عنزتها وأخيها الأكبر، متحدثة بذلك الوقار وتلك الرزانة التي يتحلى بها الأطفال. يا لنا من مهرجين نحن

الأشخاص الكبارا ثم يتوجب عليها المضي إلى المنزل، فقد حملت
طعام الغداء لأبيها. تودعني بدماثة وجدية، وتمضي بصندلها الخشبي
وجواربها الصوفية. يدعونها أنا نزيانا.

انطفأت النار. وغربت الشمس بوهن. وما تزال لدي رغبة في
السير لمسافة طويلة اليوم. وفيما أبدأ بحزم وربط صرّتي، أستعيد
أغنية إشيندروف، وأغنيها راکعاً:

قريباً، آه ما أقرب ما سيأتي الزمن الساكن،
حين أستقر أنا أيضاً، وفوقي
تخشخش الأشجار المتوحدة الرائعة،
ولن يعرفني أحد، حتى هنا.

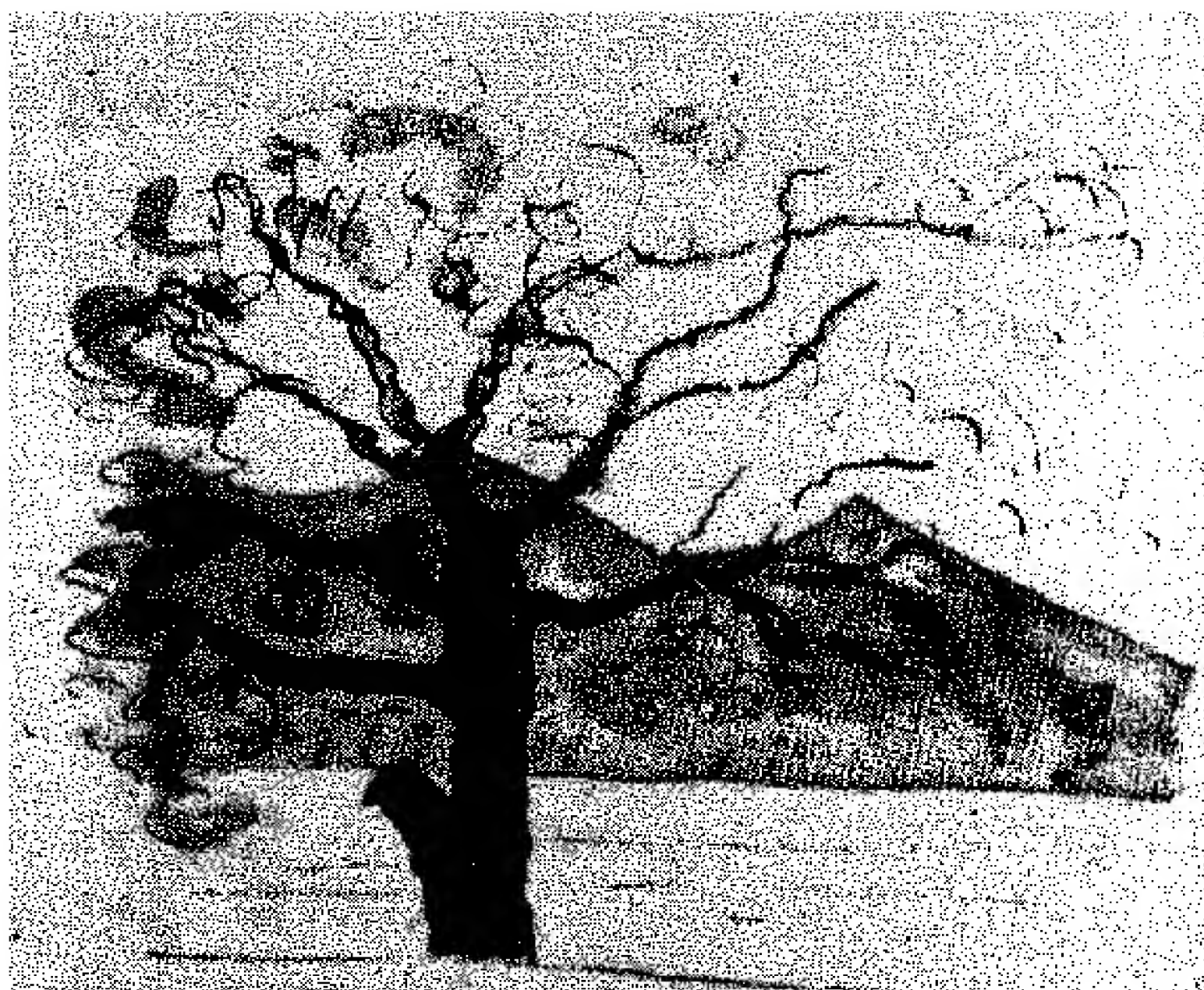
لقد أدركت، للمرة الأولى، انه حتى في هذا الطريق الحبيب،
فإن الحزن ما هو إلا ظل غمامة فحسب. ليس هذا الحزن سوى
موسيقى ناعمة لمرور الزمن، وبدونه لن يمّسنا أي شيء جميل. إنه
حزن بلا ألم. أحمله معي في رحلتي، وأشعر بالسرخس وأنا أخطو
برشاقة، مصعداً في الممر الجبلي، والبحيرة تمتد في البعيد تحتي، مجتازاً
جدول الطاحونة، ومراوحها النائمة وأشجار الكستناء حولها، في هذا
النهار الأزرق الهاديء.

الجوّال يخاطب الموت

أنت أيضاً سوف تبلغني ذات يوم،
أنت لن تنساني.
وسينتهي العذاب،
وينكسر القيد.

لكنك مع ذلك تبدو غريباً ونائياً،
يا أخي الموت العزيز.
فها أنت تقف كنجمة باردة
مطلّاً على عنائي.

غير أنك ستدنو يوماً
مفعماً باللهب.
أقدم، أيها الحبيب، فأنا هنا،
خذني، إني لك.



بحيرة، شجرة، جبل

مرة كان ثمة بحيرة. فوق البحيرة الزرقاء وفي السماء الزرقاء
تساق شجرة ربيعينة خضراء وصفراء. تسترخي السماء وراءها
بسكينة على الجبال المقوسة.

جلس الجوال عند أقدام الشجرة. بتلات صفراء تساقطت على
كتفيه. كان متعباً وأغمض عينيه. واندفع إليه حلم من الشجرة
الصفراء.

كان الجوال صغيراً، كان ولداً، وسمع أمه تغني في الحديقة
خلف المنزل. رأى فراشة ترفرف، صفراء ويانعة، صفرة بهيجة في
السماء الزرقاء. ركض وراء الفراشة. ركض قاطعاً المرج، ركض
عابراً الجداول، ركض حتى البحيرة. هناك طارت الفراشة فوق الماء
الرقراق، وطار الولد وراءها، حوّم ببراعة وسهولة، طار مرحاً عبر
الفضاء الأزرق. وسكنت الشمس أشعتها على جناحيه، طار وراء

الأصفر وطار فوق البحيرة وفوق الجبال الشاهقة ، حيث وقف الله على غيمة وغنى . حوله التفت الملائكة ، وبدأ أحد الملائكة شبيهاً بأم الولد ، حاملاً وعاء سقاية فوق مسكبة التوليب ليتسنى لها الشرب . طار الولد الى الملاك ، وصار هو نفسه ملاكاً ، وعانق أمه .

فرك الجوال عينيه ، وعاد فأغمضهما ثانية . قطف زهرة توليب حمراء وعلقها على صدر أمه . قطف زهرة توليب وأناطها بشعرها . الملائكة والفراشات كانت ترفرف حوله ، وكل الطيور والحيوانات والأسماك في العالم كانت هناك ، وكلما كان يناديهما بأسمائهما ، كانت تلبى طائرة وتحط على يد الولد وتستسلم إليه ، مرتنة للملاطفة وتمسيده واستجوابه وإطلاقه من ثم لها .

استيقظ الجوال وطفق يفكر في المسالك . أصغى إلى حفيف الأوراق النضرة وهي تتموج على الشجرة ، وتناهى الى سمعه صوت الحياة الناعمة الصامته تصعد وتهبط في دفقات ذهبية داخل الشجرة . بدا الجبل قبالة ، وهناك ثمة وقف الله بعباءته البنية ، يغني . وكان بالامكان سماع غناؤه عبر الأمداء الزجاجية للبحيرة . لقد كانت أغنية بسيطة ، امتزجت وترجعت مع التدفق الرقيق للقوة داخل الشجرة ، ومع التدفق الرقيق للدم في القلب ، ومع الفيوض الرقيقة التي انبعثت من الحلم لتجري عبره .

ثم شرع هو نفسه بالغناء ، على هَوْن وتردد . كانت أغنية ساذجة ، كانت كالهواء وإيقاع الأمواج ، كانت مهمة وطنياً كذلك

الذي يصدره النحل . ولكنها تجاوزت مع أغنية الله في البعيد، ومع أغنية الفيض المتدفق من الشجرة، ومع الأغنية الدوارة في الدم .

لمدة طويلة بقي الجوال يغني، كعشبة الأجراس الزرقاء وهي تفرع في ربح ربيعية، وكالجراد وهو يطلق موسيقاه بين الأعشاب . لقد غنى قرابة الساعة، أو السنة . غنى كطفل وكإله، غنى الفراشة وغنى الأم، غنى التولييب وغنى البحيرة، غنى دمه والدم السائل في الشجرة .

وفيا كان يمضي قدماً دون أن يشغل فكره بالريف الدافئ، كان دربه الصحيح ووجهته واسمه تعود تدريجياً إليه من جديد، وفطن إلى أن اليوم كان الثلاثاء، وأن ثمة في البعيد قطاراً يسرع باتجاه ميلانو . ورغم ذلك فقد ظل غناؤه مسموعاً عن بعد، قادماً من صوب البحيرة . هناك كان الله يقف بعباءته البنية مواصلاً الغناء، غير أن أغنيته كنت تغيب شيئاً فشيئاً عن سمع الجوال .

سحر الألوان

أنفاس الله تتردد هنا وهناك،
النعيم في الأعالي، والنعيم على الأرض،
النور يصدج بأغنياته آلاف المرات،
ويصبح الله هو العالم عبر ألوان لا حصر لها.

من الأبيض إلى الأسود، من الدافئ إلى الفاتر
كلّ يحس بأنه رُسم للتو،
والى الأبد بعيداً عن الخاووس الدوار
يرتفع قوس قزح.

وهكذا يتجول نور الله
متجلياً في آلاف الأشكال،
مخلّقا ومجسّداً في آن.
هو العزيز لدنيا كالشمس.



سما غائمة

شجيرات قزمة تنبت بين الصخور. أستلقي وأحرق في سما
المساء، التي ما تزال منذ ساعات تغطي نفسها على هون بسحب
صغيرة هادئة ومتشابكة. لا بد أن الرياح تعصف في البعيد هناك،
على الرغم من صعوبة ملاحظة أثرها هنا. إنها تنسج خيوط الغيم
وتغزلها غزلاً.

وكما يتبع صعود الرطوبة وهطول المطر على الأرض أحدهما الآخر
في اتساق إيقاعي مضبوط، وكتلاحق الفصول، وكما يحدد المد والجزر
الأوقات والتعاقبات، كذلك يتحرك كل ما في داخلنا وفق قوانين
 وإيقاعات. ليس غير البروفيسور فليز من أحصى متواليات عددية
معينة لتبيان التكرار الدوري المنتظم وعودة الظهور الحيوي. إن هذا
ليبدو كما في القابال*، مع افتراض أن القابال تتضمن المعرفة أيضاً.
● Cabala فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود ونصارى العصر الوسيط، مبنية على
تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً.

والحقيقة ان العلماء الألمان الذين سخرُوا من هذه الفكرة، كانوا أفضل المعرفين بها.

الأمواج المعتمدة في حياتي، والتي أخشاها، تتتابني أيضاً باطراد منتظم. لا أعرف التساويخ والأرقام، فلم أعنَ قط بكتابة يوميات متواصلة. لا أعلم ولن أعلم ما إذا كانت الأرقام ٢٣ و ٢٧ أو أي رقم آخر له أية علاقة بالأمر. كل ما أعلمه هو: انه من وقت لآخر تنهض في روحي، بدون أي سبب ظاهر، الموجة المعتمدة. ويمتد ظل قائم على العالم، كظل السحابة. فتغدو المتعة مزيفة، والموسيقى مبتذلة. وتشمل الكتابة الأشياء كلها، الموت آنثذ خير من الحياة. وكالنوبة تداهمني هذه السوداوية حيناً بعد حين، دون موعد محدد، وتأخذ شيئاً فشيئاً تمحجب سبائي بالغيوم. يبدأ الأمر باضطراب في القلب، مصحوب بهاجس قلق، وربما بأحلام مزعجة أثناء الليل. الناس، المنازل، الألوان، الأصوات، تلك التي من شأنها بعث المسرة في نفسي تغدو مريبة وتظهر لي زائفة. الموسيقى تسبب لي الصداع. وجبات الطعام مقرزة ومغشوة بسهام خفية. في أوقات كهذه فإن مجرد الحديث مع الناس هو نوع من التعذيب، سرعان ما يؤدي إلى ثورة غضب. بسبب أوقات كهذه لا يجوز المرء سلاحاً؛ وللسبب ذاته يفتقد المرء السلاح. ينصب الغضب والألم والتذمر على كل شيء، على الناس، على الحيوانات، على الطقس، على الله، على الصفحة في الكتاب الذي يقرأه المرء، على نوع الملابس التي يرتديها. بيد ان الغضب ونفاد الصبر والتذمر والبغض

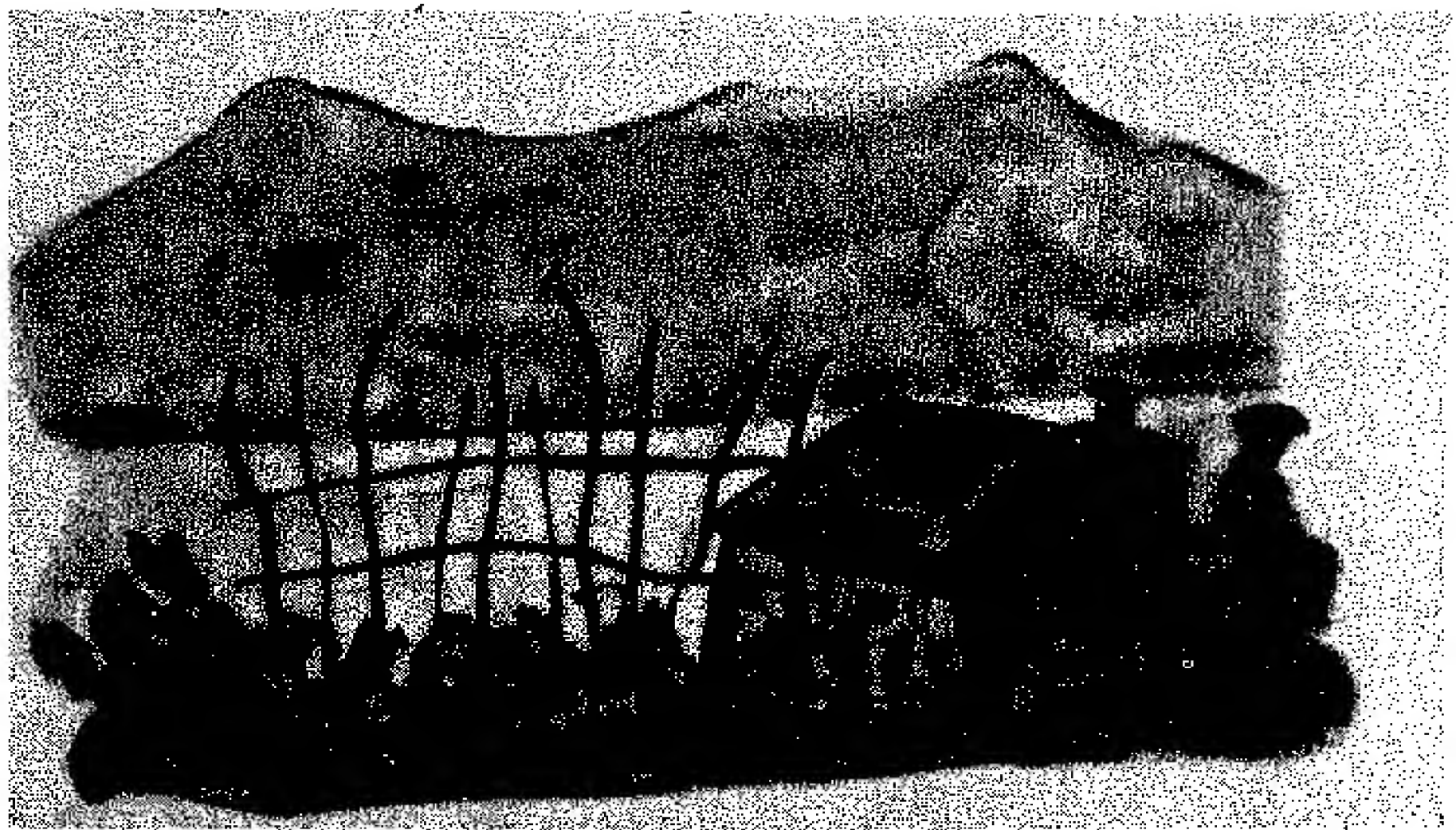
ليس لها من أثر على الأشياء، بل إن الأشياء لتزوغ منها، فترتد إليّ. فأنا من يستحق البغضاء. أنا الذي جلب إلى العالم الكراهية والتنافر.

وها أنا استريح بعد يوم كهذا. لقد كنت أعلم طيلة الوقت أن الراحة والانفراج لا بد آتيان. وأعلم كم هو جميل هذا العالم؛ وكم يتبدي لعيني في هذه اللحظة أكثر جمالاً مما لعيون الآخرين؛ الألوان تمتزج بنعومة أكثر، النسائم تهب بغبطة أشد، والنور يرفرف برقة أشهى. وأعلم في الوقت ذاته أنني سأدفع ثمن كل هذه الهناءة بأيام قادمة من عمري، تغدو الحياة فيها لا تطاق.

ثمّة بعض العلاجات الناجعة لدحر الكتابة: الغناء، التدين، شرب النبيذ، تأليف الموسيقى، كتابة القصائد، والتجول. واني لأعيش عليها جميعاً كما يعيش الناسك على صلواته. في بعض الأحيان يهيا لي أن الميزان قد مال، وأن أوقات هناءتي هي من الندرة والقلّة بحيث تعجز عن التعويض عن أوقات تعاستي. ثم أجد في أحيان أخرى، وعلى العكس من ذلك، انني قد أحرزت تقدماً، فتزداد أوقات الهناءة وتنقص الأوقات الشريرة. أما الذي ما تمنيته قط، ولا حتى في أشد أحوالي سوءاً، فهو تلك المنطقة المتوسطة بين السعادة والشقاء، ذلك المنتصف الفاتر الباهت غير المحتمل. لا، إنني لأفضل التطرف والغلو في الانعطاف.. العذاب الممض، العذاب الذي بسببه تشتد لحظات عمري تألقاً ولمعاناً.

يتلاشى اليأس من نفسي ، وتعود الحياة أهلة بالمسرة ، ويعود الى
إسقاء بهاؤها ، والى التجول جدواه . في أيام تعويض كهذه ، ينتابني
إحساس بالابلال : إعياء لكن دون شجى محدد ، استسلام دون
مرارة ، شعور بالامتنان دون مهانة . شيئاً فشيئاً يأخذ نخط الحياة
بالصعود . وأراني أدندن من جديد سطرأً من أغنية ، وأقطف وردة ،
وأعساود العبث بعصاي . لقد تغلبت على الكآبة هذه المرة ،
وسيتوجب عليّ ان أتغلب عليها مرة اخرى ، وربما مراراً عديدة .

لسوف يكون من المستحيل ان أحدد ما اذا كانت السماء الغائمة
الغامضة المزعجة بسكونها هي التي انعكست في روحي ، ام انني
كنت أقرأ صورة حياتي الداخلية منعكسة على صفحة السماء . تأتي
أحيان تلتبس فيها الأمور تماماً لقد مضت عليّ أيام كنت أملك فيها
القناعة الكاملة بأن ما من بشر على الأرض يمكنه ان يميز أمزجة
معينة للهواء والسحاب ، ودرجات محددة للألوان ، ويفرق بين رائحة
وأخرى ويعرف تحركات الرطوبة بالدرجة نفسها من الدقة والصحة
التي يمكنني فيها فعل ذلك ، بحواسي القديمة المرهفة كشاعر
وكجوال . ثم ما يلبث ان يأتي يوم ، كيومي هذا ، يملؤني بالارتياح
فيما اذا كنت رأيت أو سمعت أو شممت شيئاً على الاطلاق ، فيما
اذا كان كل ما حسبته حقيقة ، ليس سوى صورة مطسروحة إلى
الخارج ، صورة حياتي الباطنية ذاتها .



البيت الأحمر

أيها البيت الأحمر، خارج جنينتك الصغيرة وكرمك تبعث كل جبال الألب الجنوبية بأنفاسها إليّ. لقد اجتزتك في طريقي غير مرة، ومنذ المرة الأولى كانت شهوتي للتجوال تتذكر بحدة قطبها المقابل؛ وها أنا من جديد ألهو بترديد اللازمة القديمة: أن أملك بيتاً، بيتاً صغيراً وسط حديقة غنّاء، حيث تغمر السكينة كل شيء، وتستقر القرية في الأسفل. في غرفة متواضعة تواجه الشرق سوف يكون سريري، سريري الخاص، وفي غرفة متواضعة أخرى تواجه الجنوب، سأضع طاولتي، وهناك سأعلق لوحة المادونا القديمة الصغيرة التي اشتريتها أثناء رحلة سابقة في برسيا.

وكما يتوسط النهار الصباح والمساء، تتجاذب حياتي الرغبة الملحة في السفر والحنين إلى الاستقرار. وأحسب أن سيأتي يوم أبلغ فيه حداً يغدو معه الترحال وازتياد المسافات جزءاً من روحي، إذًا

سأحتفظ بالصور والانطباعات في داخلي غير مضطر الى نقلها أدبياً
ووسمها بالواقع . وربما سأجد أيضاً ذلك البيت السري في داخلي
فأكف عن مغازلة الحداثق والبيوت الصغيرة الحمراء . سأمكث في
بيتي مع ذاتي !

كم ستكون الحياة مختلفة ! سيكون ثمة مركز ، ومن هذا المركز
ستنتشر كل القوى .

ولكن ما من مركز لحياتي ؛ إن حياتي لتأرجح بين أقطاب عديدة
وأقطاب معاكسة . ترق إلى الإقامة من جهة ، وتوق إلى التجوال من
جهة أخرى . رغبة في الوحدة والانعزال هنا ، ونزعة إلى الحب
والمخالطة هناك . لقد عنيت بجمع الكتب واللوحات الفنية زمناً ثم
تخلّيت عنها . وتعهدت شهواتي الحسية وردائي بالرعاية ثم انكرتها
وارتدعت عنها في سبيل الزهد والتكفير . لقد بجلت الحياة
بإخلاص على أنها جوهري . وأدركت من ثم أن بإمكان معرفتها
وحبها باعتبارها وظيفة فحسب .

بيد أن ما أسعى إليه ليس تغيير ذاتي . فوحدها المعجزة تملك
ذلك . وكل من ينشد معجزة ، كل من يتعلق بها ويحاول بلوغها ،
فسيشهد تلاشيها أمام ناظريه . إن ما أسعى إليه هو أن أقبض في
التأرجح الدائم بين عنف المتضادات ، وأن أكون على أهبة
الاستعداد حين تباغتني المعجزة . أن مطمحي هو أن أبقى بغير ما
رضاً وإن املك القدرة على تحمل كل هذا القلق .

أيها البيت الأحمر وسط الاخضرار! لقد عشت رديحاً من الزمن
فيك وليس في وسعي مواصلة ذلك العيش. فإن لي بيتي الخاص،
منزلي السذي بنيت به نفسي. قست الجدران والسقف، وخططت
الممرات في الحديقة، وعلقت صوري على جداري. كل امرئ
مقدور عليه أن يفعل الشيء ذاته - وإنني لسعيد لأنني عشت حيناً بهذه
الطريقة. لقد تحقق الكثير من رغباتي في الحياة. أردت أن أصبح
شاعراً وأصبحت شاعراً. أردت أن أملك منزلاً، وقد شيدت
واحداً. أردت أن يكون لي زوجة وأطفال، وكان لي ذلك. أردت أن
أخاطب الناس وأؤثر فيهم، وقد فعلت. وكل تحقق لرغبة سرعان ما
كان يتحول إلى تئمة. لكن الشعور بالرضا والقناعة هو ما لم استطع
احتماله قط. فأخذ في الارتياح بقيمة ما أكتب من شعر، ويبدو لي
المنزل وهو يزداد ضيقاً. ما من هدف بلغته كان هدفاً. كل درب
أخذته كان انعطافاً، وكل راحة كانت تلد توقاً جديداً.

سأظل أتبع الكثير من المنعطافات، وستظل الانجازات المحققة
تعتقني من الأوهام. وسيأتي يوم يكشف فيه كل شيء عن معناه.
هناك، حيث تضمحل التناقضات جميعاً، قسمة النيرفانا. وفي
داخلي ما تزال تتوقد متألفة نجوم التوق الحبيبة.

أمسيات

في الأماشي يتمشى العشاق
بتؤدة عبر الحقول،
وتفرد النسوة شعورهن،
ويحصي رجال الأعمال أموالهم،
ويطالع سكان المدن بقلق
آخر الأخبار في جريدة المساء،
ويشد الأطفال قبضاتهم الصغيرة
نائمين عميقاً في الظلام.
كل امرئ مع حقيقته،
يتبع واجباً نبيلاً،
سكان المدن، الأطفال الرضع، العشاق -

ولست كذلك؟

بلى ! ان مسائي ايضاً ليفرض عليّ واجباً ،
يتعذر انجازه بغير روح العصر ،
تجاه الأشياء التي تستعبدني ،
والتي لا تخلو ايضاً من معنى .
وهكذا ارتفع وأهوي ،
راقصاً في داخلي ،
مهمهاً بأغنيات سوقية بلهاء ،
أحمد الله ونفسي ،
أشرب الخمر وأزعم
أني باشا ،
أقلق على كليتي ،
أبتسم ، وأشرب المزيد ،
ملياً رغبات قلبي
(في الصباح لا يجدي هذا) ،
بنسج القصائد هازلاً
بعد انقضاء المعاناة ،
أحرق إلى دوران القمر والنجوم ،
غماً وجهاتها ،
شاعراً أني واحد بينها
يمضي في رحلة
ما هم إلى أين .







هرمان هيسه تجوال

«... ما من مركز لحياتي؛ إن حياتي لتتأرجح بين أقطاب عديدة، وأقطاب متعاكسة. توق إلى الإقامة من جهة، وتوق إلى التجوال من جهة أخرى، رغبة في الوحدة والإنعزال هنا ولزعة إلى الحب والمخالطة هناك...»

«بيد أن ما أسعى إليه ليس تغيير ذاتي، فوحدها المعجزة تملك ذلك، وكل من يتشدد بمعجزة، كل من يتعلّق بها ويحاول بلوغها فسيشهد تلاشيها أمام ناظريه. إن ما أسعى إليه هو أن أفيض في التأرجح الدائم بين عنف المتضادات، وأن أكون على أهبة الاستعداد حين تباغتني المعجزة. إن مطمحي هو أن أبقي بغير ما رضا، وأن أملك القدرة على تحمل كل هذا القلق...»

هرمان هيسه

912

هـ
ت

الكتاب

تلفاكس : 5022011 • ص.ب : 950252 • عمان 11195 الأردن

لنشر والتوزيع

(ردمك) 3-014-09-9957-ISBN

To: www.al-mostafa.com